نظرية الوحى عند فلاسفة الإشراق

(عرض ونقد)

إعداد

د/ عواد محمود عواد سالم

مدرس العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بالقاهرة

١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث :

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا علىٰ الظالمين ، والصلاة والسلام علىٰ خاتم النبيين والمرسلين ، سيدنا محمد بن عبد الله الصادق الوعد الأمين ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

ـ فقد جرت حكمة الله تعالىٰ أن يرسل إلىٰ الخلق من أنفسهم رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس علىٰ الله حجة بعد الرسل ، وهؤلاء الرسل هم صفوة الله من خلقه ، ميزهم الله بوحيه ، قال تعالىٰ ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [سورة فصلت آية: ٦] ، فالوحىٰ هو ميزة الرسل وآية علو مقامهم .

ــ ومن جانب آخر : الوحىٰ فىٰ الحقل المعرفىٰ يحتل مكانـاً مميزاً، فالمعرفة الوحيية متميزة باليقين المطلق ، كما أن الوحىٰ ـ كمصدر للمعرفة ـ جاء مهيمنـاً مستعلياً علىٰ كافة المصادر المعرفية الأخرىٰ كالحس والتجربة

والعقل ، وظهر ذلك واضحاً جلياً فى عالم ما وراء الطبيعة ، فبعدما أعلنت الفلسفة عجزها عن إنتاج اليقين المطلوب فى عالم الغيبيات ـ برغم غزارة الإنتاج الفلسفى فى هذا الجانب ـ أتى الوحى ليقدم للإنسان كل ما يتطلع إليه ويحتاجه فى حياته وبعد مماته مفصلاً مبيناً.

ـ وثمة خصيصة أخرى للوحى : وهى أن الوحى قائم على المنح الصرف والاصطفاء المحض من الله ، ولا دخل فيه للاكتساب ، فقد اجتمعت كلمة أهل السنة على أن الرسالة منحة من الله ؛ لقوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ [سورة الأنعام آية: ١٢٤] ، فالنبوة التى هى مؤهل تلقى الوحى نتيجة لاصطفاء خاص من الله تعالى لمن شاء كما قال لسيدنا موسى ﴿ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾ [سورة الأعراف آية: ١٤٤] ، وبهذا ندرك خطأ كل من أدخل النبوة فى قائمة المواهب البشرية التى تنال بالمجاهدات والرياضات الروحية .

ولما كان الوحى بهذه المثابة فى ديننا ارتبطت به عدة نظريات لمحاولة شرح كيفيته ، ومن بين هذه النظريات : نظرية فلاسفة الإشراق من المسلمين

خاصة الفارابىٰ وابن سينا ، فقد كان كلامهم عن الوحىٰ موهمـًا بأنه نوع من المكتسبات التىٰ تنال بالاجتهاد ، وأرجعوه إلىٰ قوة المخيلة التىٰ تتصل بالعقل الفعال أو بالعقول المفارقة كما سيأتىٰ تفصيله فىٰ ثنايا هذا البحث إن شاء الله تعالىٰ .

ولما كانت النتيجة المترتبة علىٰ نظريتهم فىٰ الوحىٰ تمس عقيدة ختم النبوة ـ فإن كل شخص إذا قوىٰ مخيلته بشئ من المجاهدات يمكن أن يرتقىٰ إلىٰ درجة النبوة ـ كانت هذه النظرية من أخطر النظريات التىٰ قامت لتفسير الوحىٰ ؛ ولذا فقد عزمت ـ بحول الله تعالىٰ وقوته ـ علىٰ تسطير هذا البحث الموجز عن نظرية الوحىٰ عند فلاسفة الإشراق من المسلمين مقتصراً فقط علىٰ الفارابىٰ وابن سينا ، و محاولاً ـ بقدر الإمكان ـ عرضها بأمانة ، وتقييمها وبيان ما فيها من أوجه النقد بموضوعية ، والله المستعان ، وقد رتبت هذا البحث علىٰ مقدمة وخمسة مباحث وخاتمة :

المقدمة : وفيها تمهيد للموضوع .

المبحث الأول : الوحىٰ فىٰ اللغة العربية والنصوص الشرعية .

المبحث الثانىٰ : موجز عن الوحىٰ فىٰ الفلسفات غير الإسلامية .

المبحث الثالث : كيفية الوحىٰ عند فيلسوفىٰ الإشراق (الفارابىٰ وابن سينا) .

المبحث الرابع : وحىٰ النبوة عند الفلاسفة .

المبحث الخامس : نقد نظرية الوحىٰ فىٰ الفلسفة الإشراقية .

خاتمة البحث : وفيها أهم النتائج .

والله الموفق والهادىٰ إلىٰ سواء السبيل

المبحث الأول

الوحى فى اللغة وفى النصوص الشرعية

الوحىٰ فىٰ اللغة :

أجمع أهل اللغة وعلماؤها علىٰ أصالة هذه الكلمة ، وأنها ليست من الألفاظ الأجنبية الدخيلة ، ولم يشر أحد من علماء اللغة إلىٰ أن لهذا اللفظ أصلاً غيرعربىٰ ؛ وذلك لأنهم استعملوا هذه الكلمة فىٰ التعبير عن أمور طبيعية حياتية يومية ، ومثل هذه الاستعمالات لا تنتظر الأمم فىٰ التعبير عنها وروود الوافد الجديد أو الأجنبىٰ الدخيل من الألفاظ .[1]

وتطالعنا معاجم اللغة بأن كلمة الوحَىٰ بفتح الحاء كالوحْىٰ بسكونها ، وهو الصوت، ويقال : الوحاه بالهاء أىٰ صوت الطائر ، ووحاة الرعد أىٰ صوته الممدود الخفىٰ ، وقد يقال الوحَىٰ - بفتح الحاء - مقصورة بالألف ، أو الوحاء الممدودة بالهمز فىٰ الاستعجال ، تقول : الوحىٰ الوحىٰ أو الوحاء الوحاء : أىٰ

(1) راجع : الدين والوحىٰ والاسلام للإمام مصطفىٰ عبد الرازق ص ٨٣ ، ط دار الكتب المصرية ٢٠٠٩

البدار البدار.[1]

والوحْىٰ - بسكون الحاء - مصدر الفعل : وحىٰ يحىٰ ، وهذا تعبير معروف ومشهور فىٰ لغة العرب ، إلا أن الأكثر فىٰ استعماله فىٰ القرآن هو استعماله مهموزاً متعدياً بإلىٰ كقوله تعالىٰ ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة المائدة آية: ١١١] ، وقوله تعالى ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [سورة النحل آية: ٦٨] ، وعلىٰ كل حال فالفعل فىٰ اللغة متداول ومشهور ومستعمل علىٰ صورتيه : المهموزة وغير المهموزة ، وقد يطلق الوحىٰ علىٰ اسم المفعول ، فيقال علىٰ الموحىٰ به وحىٰ .

أما عن معانىٰ هذه الكلمة فىٰ اللغة : فيشير علماء اللغة إلىٰ أن معانيها كثيرة ، فهىٰ تستعمل بمعنىٰ : الإشارة والكتابة والإلهام والرسالة والكلام الخفىٰ والأمر والإعلام السريع والوسوسة والعلم الضرورىٰ والإلقاء فىٰ القلب ،

---

(١) راجع : لسان العرب مادة (وحىٰ) ٣/ ٨٩٢ ، ط دار لسان العرب ، بيروت ، والصحاح فىٰ اللغة والعلوم للجوهرىٰ ، مادة (وحىٰ) ٢/ ٦٧٣ ، ط دار الحضارة العربية ، بيروت ، ومختار الصحاح تأليف : محمد بن أبىٰ بكر الرازىٰ ، ص ٧١٣ ، ط المطابع الأميرية ، طبعة ثالثة ١٩٣٨ ، والمعجم الوجيز مادة (وحىٰ) ص ٦٦٣ ط وزارة التربية والتعليم ١٩٩٩

واستعمالها فى الرسالة والإلهام هو الغالب شرعـاً .[1]

والظـاهر أن استعمال الـوحى فى هـذه المعـانى كلهـا علـى سـبيل الحقيقـة لا المجاز ، فكلمـة الـوحى مـن قبيـل المشـترك اللفظـى ، ولعلنـا نلحظ أيضـاً أن المعنى يختلف بـاختلاف مصـدر الـوحى ، فإذا كـان مصـدره هـو الله فمعنـاه : الأمر والإلهام و إلقاء العلـم الغريـزى ، ويجمعهـا مصـطلح الإمـداد المعـرفى ، فالإمداد المعرفى أو ما يسمى عند الصوفية بالمعرفة اللدنية مصدره الوحى من الله تعالى .

أما إذا كان مصدره غير الله فالمعنى يختلف :

ـ فهـو الإشـارة ، كمـا قـال الله تعـالى فى حـق سـيدنا زكريـا ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ ، والمعنـى أى أشار إليهم إشارة خفيفة سريعة.[2]

ـ أوهوالكتابة من إنسان لغيره ، وقد ذكرهذا المعنـى أيضـاً المفسـرون فى تفسـير قولـه تعـالى ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن

(١) راجع : لسان العرب ٣/ ٨٩٢ ، والمصباح المنير للفيومى مادة (وحى) ص ١٠١٠ ، طبعة ثالثة ، المطابع الأميرية ١٩١٢

(٢) راجع : لسان العرب ، مادة (وحى) ٣/ ٨٩٢ ، وتفسير ابن كثير ٣/ ١١٦ ، ط مكتبة مصر.

سَبِّحُواْ بُكۡرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [سورة مريم آية: ١١] أوحىٰ إليهم أىٰ أشار ، وقال مجاهد فىٰ رواية عن ابن عباس : أىٰ كتب لهم.(١)

ـ كذلك هو الوسوسة إذا كان مصدره الشيطان ، قال تعالىٰ ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ ﴾ [سورة الأنعام آية: ١٢١] ، وإن الشياطين ليوحون إلىٰ أوليائهم ليجادلوكم أىٰ يوسوسون إليهم سراً .[٢]

فمعنىٰ الوحىٰ يختلف باختلاف مصدره ، وقد أجمل العلماء معانىٰ الوحىٰ لغة علىٰ تعددها فىٰ أربعة أقوال :ـ

١ـ الإعلام والإسرار فىٰ خفاء ، ويدخل فيه الإلهام والوحىٰ إلىٰ الأنبياء ، وهذا هو أصله فىٰ الاستعمال الشرعىٰ .

٢ـ الإعلام فىٰ سرعة ؛ لأن الوحىٰ يأتىٰ ويتلقىٰ بسرعة .

٣ـ الإعلام بسرعة وخفاء معـًا ، فالوحىٰ إعلام سريع خفىٰ.

٤ ـ مطلق الإلقاء إلىٰ الغير.

---

(١) راجع : الجامع لأحكام القرآن للقرطبىٰ ١١/ ٨٥ ، ط الهيئة المصرية للكتاب ، بدون ، وتفسير ابن كثير ٣/ ١١٦ ، ط مكتبة مصر بالفجالة ، بدون ، وانظر : لسان العرب ٣/ ٨٩٢

(٢) راجع : الكشاف للزمخشرىٰ ٢/ ١٢١ ، ط مكتبة مصر بالفجالة ، بدون ، وروح المعانىٰ للآلوسىٰ ٨/ ٣٥٥ ط دار الحديث

والقول الجامع فى معنى الوحى : أنه هو الإعلام السريع الخفى الخاص بمن يوحى إليه بحيث يخفى على غيره ، ولعل هذا الإطلاق هو أشملها وأوسعها دلالة ، وكل هذه الإطلاقات تشير إلى أن الوحى مختص بالجانب المعرفى ، وأنه من المجردات لاعلاقة له بالمادة .(1)

الوحى فى القرآن :

ـ تحدث القرآن الكريم عن الوحى حديثاً مستفيضاً ، وجاء حديثه شاملاً للوحى بكل معانيه وعلى اختلاف مصادره وصوره ، وأكثر ما استعمل فيه الفعل ما ضياً ومضارعاً ، فقد جاء ذكر الوحى فى القرآن فى نحو سبعين آية من القرآن الكريم ، ست وأربعون منها مكية ، وست فقط مدنية ، ولعل فى هذا إشارة إلى نقطة من نقاط تميز الدين الجديد ، ودعوة إلى تصحيح المفاهيم وإصلاح الأوضاع .

أقول : جاء الإسلام وأهل مكة فى ضلال وغى ، فكان مقصده الأول تصحيح المفاهيم ، وكان التركيز على إثبات مصدر آخر للمعرفة غير المصادر التى ،

(1) راجع : نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة د/ راجح عبد الحميد الكردى ص ٧٠٦ ، طبعة أولى ، ١٩٩٢ ، مكتبة المؤيد ، السعودية ، والحياة الفكرية فى ضوء الفلسفة الإسلامية ، د/ حسن الفاتح قريب الله ، ص ١١٢ ، ١١٣ ، ط مطبعة الأمانة بالقاهرة ، بدون .

ألفها البشر، وهو الوحىٰ ، وهذا المصدر هو المهيمن علىٰ كل ما سواه، فإثبات المعرفة الوحيية والمصدر الإلهىٰ من صورتصحيح المفاهيم ، وإحدىٰ تطبيقات الإصلاح العام الذىٰ من أجله جاء الرسل ، فمصادر المعرفة ليست قاصرة علىٰ الحس والعقل والتوارث عن الأجداد، وإنما لها مصدر آخر وهو التلقىٰ عن الوحىٰ .[1]

وفىٰ إثبات التلقىٰ عن الوحىٰ إثبات لأصل الرسالة ، فالنبىٰ ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ قبل أن يبدأ مهمته التبليغية أثبت فىٰ البداية أنه يوحىٰ إليه ، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [سورة فصلت آية: ٦] فقد أثبت المثلية فىٰ البشرية وميزنفسه بالوحىٰ.(٢)

ـ أما عن معانىٰ الوحىٰ فىٰ القرآن : فقد جاء فعل الوحىٰ فىٰ القرآن مسنداً غالبـًا إلىٰ الله تعالىٰ والموحىٰ إليه هم الأنبياء ، ومعناه إلقاء ما يريده إليهم من الرسالات والعلوم والمعارف ، ويعبر عن هذا المعنىٰ بالتنزيل ، قال تعالىٰ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ

(١) الوحىٰ المحمدىٰ محمد رشيد رضا ص ٣٤ ط ٦ القاهرة ١٩٦٠

(٢) شرح المعالم فىٰ أصول الدين لابن التلمسانىٰ ٥٤٧ ، ط الأزهرية للتراث ، ط أولىٰ ٢٠١١

يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾ [سورة الشورى آية: ٧] ، وقوله ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [سورة يوسف آية: ٢] ، وقد عبر عن الوحى أيضـًا بالكلام ، فالكلام نوع من الوحى ، قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴾ [سورة الشورى آية: ٥١] ، فالوحى إذن على ثلاثة أنحاء :

١ـ إما عن طريق القذف فى القلب أو الرؤيا المنامية : كما أوحى إلى سيدنا إبراهيم بذبح ولده إسماعيل عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام .

٢ـ أو عن طريق الكلام .

٣ـ أو يرسل إليه رسولاً من الملائكة فيوحى إليه بما يشاء. (١)

ولكن جاء فى قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ

(١) الكشاف ٤/ ١٤٢ ، ١٤٣ ، ط

عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [سورة النساء آية: ١٦٤] ، فقد ذكر الوحىٰ إلىٰ الأنبياء المذكورين فىٰ الآية ، ثم خص موسىٰ بنوع آخر وهو الكلام ، وعلىٰ هذا فالكلام ليس قسماً من الوحىٰ بل هو قسيم له ، وإن أريد بالوحىٰ إيصال المعنىٰ من الموحىٰ إلىٰ الموحىٰ إليه بطرق متعددة ، فالكلام قسم من أقسام الوحىٰ .

وقد جاءت بذلك آية سورة الشورىٰ (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ... الآية) فقد حصرت الكلام فىٰ طرق ثلاث :ـ

١ـ الإلهام ٢ـ أو أن يسمع الكلام ولا يراه ٣ـ أو يرسل إليه الملك المكلف بالبلاغ .

والخلاصة : أن الكلام له استعمالان :ـ

١ـ استعمال عام ، ومعناه إيصال المعنىٰ بأىٰ طريق ، وعلىٰ هذا فهو أعم من الوحىٰ ، والوحىٰ قسم من أقسامه .

٢ـ استعمال خاص : وهو كلام الله لعبده بلا واسطة ، وعلىٰ هذا فهو قسيم للوحىٰ.[1]

وقد جعل الإمام الرازىٰ كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة وحياً ، فقد ذكر فىٰ تفسيره : أن طريق وصول الوحىٰ من الله إلىٰ الموحىٰ إليه إما : أن

---

(١) الدين والوحىٰ والاسلام ص ٩٣

يكون من غير واسطة مبلغ ، أو يكون بواسطة مبلغ ، فإن لم يكن بواسطة فإما : أن يسمع عين كلام الله ، أو لا يسمع ، فإن لم يسمع فهو المراد من قوله تعالىٰ وحياً ، أىٰ إلهاماً وقذفاً فىٰ القلب ، وإن سمع فهو المراد من قوله تعالىٰ أو من وراء حجاب ، وإما بواسطة فهو الثالث ، وهو قوله تعالىٰ أو يرسل رسولاً فيوحىٰ بإذنه ما يشاء .

فهذه الثلاثة تسمىٰ وحياً ، إلا أنه خص الأول باسم الوحىٰ ؛ لأن ما يقع فىٰ القلب علىٰ سبيل الإلهام يقع دفعة واحدة ، فكان تخصيص لفظ الوحىٰ به أولىٰ . [1]

والخلاف فىٰ هذه المسألة ـ فيما أرىٰ ـ مجرد خلاف شكلىٰ لا يترتب عليه شئ ، فما الذىٰ يترتب علىٰ القول بأن الكلام أعم من الوحىٰ أو أخص ، أو تسمية الكلام وحياً أو العكس ؟ فالخلاف هنا مجرد صنعة لفظية لا غير .

ـ وقد جاء فعل الوحىٰ فىٰ القرآن أيضاً مسنداً إلىٰ الله تعالىٰ والموحىٰ إليه غير الأنبياء : كقوله تعالىٰ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [سورة القصص آية: ٧] وقوله ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ [سورة المائدة آية: ١١١] ، وقوله تعالىٰ ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [سورة النحل آية:

---

(١) راجع : التفسير الكبير للرازىٰ ٢٧ / ١٦٥ ، ط المكتبة التوفيقية ٢٠٠٣

٦٨] وقوله ﴿ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ ﴾ [سورة فصلت آية: ١٢] ،ومعناه : الإلهام والقذف فى القلب كما فى حق أم موسى ، فمعنى أوحينا إلى أم موسى أى ألهمناها . (١)

ـ وقد يكون معناه التوجيه والعلم الغريزى : كما فى قوله تعالى (وأوحى ربك إلى النحل) ، وقد سماه الرازى بالإلهام الخاص ؛ إذ أنها تبنى هذه البيوت المسدسة التى هى فى غاية الإتقان والإحكام ، ولا يكون ذلك إلا بالوحى والإلهام .

ـ ومن معانيه كذلك : الأمر والخلق والتقدير : كما فى قوله تعالى (وأوحى فى كل سماء أمرها) يقول الرازى : والمعنى أمر فى كل سماء بما أراد ، وقال قتادة : خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها .

ـ و من معانيه أيضاً : الإعلام والإخبار بطريق ما ، كما فى قوله تعالى ﴿ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ ﴾ [سورة الأنفال آية: ١٢] ، ولا مانع أن يكون معناه الإلهام ؛ إذ إن الملك قد يلقى الإلهام إليه . (٢)

---

(١) راجع : تفسير ابن كثير ٣ / ٣٩٣ ، وتفسير الرازى ٢٢ / ٥٤

(٢) راجع : تفسير الرازى ١٥ / ١١٢

وبالجملة : فالوحىٰ من الله للأنبياء إعلام ولغيرهم من البشر إلهام وقذف فىٰ القلب ، وللحيوان توجيه وعلم غريزىٰ ، وللسموات والأرض أمر وخلق وتقدير، وقد يكون الوحىٰ من غير الله ومعناه الإشارة أو الكتابة، أو الوسوسة إذا كان مصدره الشيطان.

الوحى فى السنة :

توسعت السنة فىٰ الحديث عن الوحىٰ ، ودارت الأحاديث عن الوحىٰ حول ما يلىٰ :

أ ـ تحدثت السنة عن الوحىٰ بمعنىٰ إعلام الأنبياء رسالة الله فىٰ سرعة وخفاء ، بل اقتصرت فىٰ حديثها علىٰ الوحىٰ إلىٰ سيدنا محمد ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وبهذا يمكننا القول بأن السنة أخص من القرآن فىٰ حديثها عن الوحىٰ .

ب ـ أكثرت الأحاديث فىٰ ذكر التفاصيل المتعلقة بالوحىٰ إلىٰ رسولنا من بيان بدء الوحىٰ وكيفية نزوله ، والعوارض التىٰ كانت تعتريه .

ج ـ أن السنة تنزع غالبـاً إلىٰ تصوير ملك الوحىٰ وما يتبع نزوله بصور مادية ، فالأحاديث تنص علىٰ أن ملك الوحىٰ يهز الأرض برجله ، ويفجر الماء ، ويتمثل للنبىٰ فىٰ صورة مادية محسوسة عند الإسراء والمعراج ، وكذلك يأتيه

علىٰ صورة دحية الكلبىٰ ، وغير ذلك من الأحاديث التىٰ أفاضت فىٰ المنزع المادىٰ فىٰ تصوير ملك الوحىٰ . (1)

صور الوحىٰ فىٰ السنة : جاء الوحىٰ فىٰ السنة علىٰ صور متعددة منها :

أ ـ الرؤيا الصادقة : فقد كانت مبدأ وحىٰ نبينا ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ كما فىٰ حديث عائشة رضىٰ الله عنها (أول ما بدئ به النبىٰ من الوحىٰ الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ... الحديث) (2)، والمدة التىٰ كان يوحىٰ إليه فىٰ المنام ستة أشهر ، إلىٰ أن أتاه جبريل وهو يتحنث فىٰ غار حراء . (3)

ب ـ النفث فىٰ الروع والإلقاء فىٰ القلب ، فقد ثبت عن النبىٰ ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ أنه قال (إن روح القدس نفث فىٰ روعىٰ أن لا تموت نفس حتىٰ

---

(1) راجع حديث الإسراء مثلاً ، ونلحظ فيه بوضوح المنزع المادىٰ فىٰ كلام السنة عن جبريل ، انظر : شرح النووىٰ علىٰ صحيح مسلم ٢ / ٢٠٩ ط المطابع الأميرية .

(2) الحديث : أخرجه البخارىٰ بسنده من حديث السيدة عائشة فىٰ كتاب بدء الوحىٰ ، باب ٣ ، حديث رقم ٣ ص ٨ ، ط دار ابن حزم ، طبعة أولىٰ ٢٠١٠ ، ترتيب : محمد فؤاد عبد الباقىٰ ، ومسلم ٢/ ١٩٧ ، وراجع سيرة ابن هشام ١/ ١٨٨ ، ١٨٩ ، ط أولىٰ ، دار الفكر ، بيروت.

(3) راجع : سيرة ابن هشام ١/ ٢٦٩

تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ... الحديث)[1]

ج ـ الكلام من وراء حجاب وبلا حجاب : والكلام من وراء حجاب من كيفيات الوحى التى جاءت السنة بثبوتها لنبى الله موسى ، فقد كلمه الله تكليماً ، ولكن من وراء حجاب ، وثبتت أيضاً لنبينا ، ولكن بلا حجاب ، فقد جاء فى حديث الإسراء والمعراج أنه كلم ربه كفاحاً بلا حجاب ، وقد جاء القرآن الكريم بما يؤكد هذا المعنى ، قال تعالى ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [سورة النجم آية: ١٠] ، فقد ذكر الرازى أنه أوحى إلى محمد ما أوحاه إلى جبريل ، أى كلمه الله أنه أوحى إليه.[2]

دـ الوحى عن طريق الملك: وهذه الكيفية مشهورة فى السنة ، فأكثر

---

(١) الحديث : ذكره الألبانى فى السلسلة الصحيحة من حديث عبد الله بن مسعود برقم ٢٨٦٦

(٢) التفسير الكبير ٢٨/ ٢٦٧ ، ويتعلق بهذه الكيفية قضية رؤية الرسول لربه فى رحلة المعراج ، فقد اختلف العلماء فيها بين مثبت ونافٍ ، والأسلم فيها الإمساك عن تعيين الكيفية وتفويض علمها إلى الله تعالى مع إثبات الرؤية ؛ إذ أنها من الأصول التى أشار إليها القرآن الكريم ، وذلك فى قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) ، وعلى هذا القول أكثر العلماء . راجع : شرح النووى على صحيح مسلم ٣/ ٤ ، وتحفة المريد ١٩٦ ، ط دار السلام ، وعقيدتنا أد/ محمد ربيع جوهرى ٢/ ١٥٥ ، ط مكتبة الإيمان .

الأحاديث علىٰ أن ملك الوحىٰ (جبريل) أتاه أو نزل عليه ، وهذه الكيفية تكون علىٰ أنحاء مختلفة :

أ ـ أن يراه النبىٰ علىٰ صورته كما رآه عند بدء الوحىٰ مع نزوله عليه أول مرة ، ومرة أخرىٰ بعد هذه المرة ، فقد جاء عن النبىٰ أنه قال: (بينما أنا أمشىٰ إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصرىٰ ، فإذا بالملك الذىٰ جاءنىٰ بحراء جالس بين السماء والأرض علىٰ كرسىٰ ، فرعبت منه ، فرجعت وقلت زملونىٰ) [1]

ب ـ أن يظهر فىٰ صورة إنسان يراه الحاضرون ويستمعون إليه ، كما فىٰ حديث سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان وعن الساعة ، وكما كان يظهر كثيراً فىٰ صورة الصحابىٰ الجليل دحية الكلبىٰ رضىٰ الله عنه .

ج ـ أن ينزل عليه خفية فلا يراه ، وإنما يشعر بآثاره ، فقد أخرج البخارىٰ بسنده أن الحارث بن هشام سأل رسول ، فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحىٰ ، فقال : أحياناً يأتينىٰ مثل صلصلة الجرس ، وهو أشد علىٰ ، فيفصم عنىٰ وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لىٰ الملك رجلاً فيكلمنىٰ فأعىٰ ما

---

(١) الحديث أخرجه البخارىٰ بسنده من حديث جابر بن عبد الله فىٰ كتاب بدء الوحىٰ باب ٣ ، حديث رقم ٤ ، ومسلم من حديث جابر أيضاً فىٰ باب بدء الوحىٰ ٢/ ٢٠٥ ط المطابع الأميرية .

يقول ، وتواصل السنة ذكر التفاصيل المتعلقة بالوحىٰ ، والتىٰ تنزع فيها نزوعًا ماديًا ، فتذكر السيدة عائشة بعض الأعراض التىٰ كانت تظهر علىٰ النبىٰ ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ فتقول : ولقد رأيته ينزل عليه الوحىٰ فىٰ اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا [1]

وبعد هذا التأصيل لفكرة الوحىٰ من الكتاب والسنة ننطلق إلىٰ دروب الفكر الفلسفىٰ لنرىٰ وضع هذه القضية عند الفلاسفة وبخاصة فلاسفة الإشراق من المسلمين.

(1) الحديث أخرجه البخارىٰ بسنده من حديث الحارث بن هشام فىٰ كتاب بدء الوحىٰ ، باب ٢

المبحث الثانى

موجز عن الوحى فى العصورالفلسفية.

المعرفة من المباحث الرئيسية فى الفلسفة والتى شغلت عقل الفلاسفة منذ أقدم العصور ، ولما كان للوحى دور فعال فى مجال المعرفة ، فهو يصل إلى ما تقصر دونه الحواس والعقول ، كما أن معارفه تتسم باليقين المطلق ؛ ولذا فقد قدمت عدة نظريات لمحاولة تفسير ظاهرة الوحى ، وهذه النظريات بعضها مقبول وحق والبعض الآخر محل نقد .[1]

ولعل أهم النظريات التى قدمت لتفسير الوحى - وهى محل نقد - نظرية فلاسفة المسلمين التى تجعل الوحى كنتيجة لنوع من المجاهدات والرياضات الروحية التى يتلوها فيض وتجلى من العقل الفعال ، وبعد هذا التجلى يمكن للإنسان أن يطلع على الغيب بمحازاة نفسه لعقول الأفلاك وانطباع نفسه بصورة مما فيها ، فيعلم الغيب ويتصرف فى عالم العناصر ، ويترتب على هذا التفسير القول باستمرار النبوة ؛ ونظراً لأهمية هذه الجزئية وخطورة ما يترتب عليها ، سنفصل القول فيها ، ولكن لما كان الفكر سلسلة متصلة الحلقات يتصل سابقها بلاحقها ، وكنوع من التقديم والتمهيد سنقدم

(١) راجع : المنقذ من الضلال للغزالى مع أبحاث فى التصوف للإمام عبد الحليم محمود ص ٣٨٥ ، طبعة ثامنة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٤ .

كلمات موجزة عن الوحىٰ فىٰ مختلف العصور الفلسفية فيما يلىٰ :

الوحى عند فلاسفة اليونان :

لم يكن البحث فىٰ الميتافزيقا أو الوحىٰ هو ما يشغل فلاسفة اليونان قبل سقراط ، وإنما كان همهم الأول هو البحث عن الوجود والتغيرات الحادثة ، فالإنسان فكر أول ما فكر فىٰ المادة التىٰ يتألف منها الوجود ، وهذا أمر منطقىٰ ؛ لأن عقل الطفولة الفج لا يستطيع أن يفهم إلا العالم المادىٰ ، ولا يقوىٰ علىٰ التفكير فىٰ المعقولات.(1)

هذا بجانب الكم الهائل من المعتقدات الوثنية والخرافات الأسطورية المتعلقة بالإله ، ثم انتهت الفلسفة اليونانية إلىٰ تصور جديد للدين سمىٰ باسم علم الدين ، وذلك فىٰ عهد أفلاطون الذىٰ حاول القيام بثورة تصحيحية ، فحاول أن ينشئ قواعد فلسفية للشعر تصحح ما جاء فىٰ كتابات شعراء اليونان من تصورات أسطورية عن الآلهة ؛ إذ كانوا يتخيلون أن الآلهة متصفة

---

(1) راجع : قصة الفلسفة اليونانية ، أحمد أمين ـ زكىٰ نجيب محمود ، ص ١٨ ، طبعة ثانية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥ ، و مع الفلسفة اليونانية د/ محمد عبد الرحمن مرحبا ، ص ٨٦ ط عويدات ، بيروت ، ط ثالثة ١٩٩٨

بصفات البشر .[1]

ومع ذلك فقد كانت هناك محاولات لتهذيب فكرة الإله : فسقراط رفض أساطير اليونانيين حول الآلهة ، وأعلن أن الآلهة هي التي تمثل العقل الكلي الذي يحكم العالم بعدالته الحازمة ، وتكلم عن الصوت الإلهي وإمكانية اتصال الإنسان بالإله من غير وسيط ، واعتبر الدين تكريماً للضميرمن قبل العدالة الإلهية ، ولنتيجة لهذه الأفكار ـ التي اعتبرها الحكام في زمنه تطرفاً ومعارضة ـ قدم للمحاكمة وأعدم.[2]

ومن بعده جاء أفلاطون فأوجب معرفة الله بالعقل ، ولا يكون هذا إلا بعد أن يتدرب العقل على البحث والجدل ، وفصل فصلاً تاماً بين عالم الحس وعالم المثل ، مع تأكيده على أن ما في الخارج يعد صورة لما في عالم المثل العقلي ، وهذا يعني أن أفكار الإنسان تتطابق مع حقائق الوجود ، وأول هذه الحقائق هي وجود الله ، وأخذ أفلاطون يقيم الأدلة على وجود الله حتى

---

(1) راجع : فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط د / أحمد فؤاد الأهواني ص ٢٠ ط الهيئة العامة

(2) راجع : ملامح الفكر الفلسفي عند اليونان د/ عباس حربي عطيتو ، ص ٢١٥ ، ط دار المعرفة الجامعية بالأسكندرية ، ١٩٩٢ ، وتاريخ الفلسفة اليونانية د/ ماجد فخري ص ٦٨ ، ط دار العلم للملايين ، بيروت ، ط أولى ، ١٩٩١

لقب بأفلاطون الإلهىٰ . [1]

ثم جاء من بعدهما أرسطو فقرر أن الإله هو السبب النهائىٰ للعالم الطبيعىٰ ، وسماه بالمحرك الأول ، وجعله علىٰ قمة سلسلة الموجودات ، وجعل البحث فىٰ الإله أشرف أبحاث الفلسفة ، وسماه بالفلسفة الأولىٰ .[2]

ومع حديث فلاسفة اليونان العظام عن الدين ، إلا أنهم لم يعرفوا وحياً منزلاً ، ومن ثم لم يبحثوا فيه قبولاً ورداً. [3]

الوحى فى فلسفة العصور الوسطى :

مرحلة العصور الوسطىٰ فىٰ الفلسفة الأوروبية تميز بأنها فلسفة دينية الطابع ، فقد كانت الديانة النصرانية منتشرة آنذاك ، وفلاسفة هذه العصور كانوا هم باباوات النصرانية ؛ ولذا كان الحديث عن الدين والوحىٰ جزءاً لا

---

(1) راجع : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ١٥٨ ، وولتر ستيس ، ترجمة / مجاهد عبد المنعم مجاهد ، ط دار الثقافة ١٩٨٤ ، وتاريخ الفلسفة اليونانية د/ ماجد فخرىٰ ص ٨١

(2) راجع : تاريخ الفلسفة اليونانية د/ يوسف كرم ص ٦٦ ، ط لجنة التأليف والنشر ، ١٩٣٦ ، ومدخل جديد إلىٰ الفلسفة د/ عبد الرحمن بدوىٰ ٢١١ ، ط ١ وكالة المطبوعات بالكويت ، ١٩٧٥

(3) راجع : مصادر المعرفة فىٰ الفكر الدينىٰ والفلسفىٰ د/ عبد الرحمن بن زيد الزنيدىٰ ص ١٠٧ ، طبعة أولىٰ ، ١٩٩٢ ، مكتبة المؤيد ، المملكة العربية السعودية .

يتجزء من فلسفتهم ، ولما كان الدين والوحىٰ من المباحث الميتافزيقية التىٰ ليست من جنس الموضوعات الفلسفية ظهر ما يسمىٰ بعلم اللاهوت. [1]

كانت الفلسفة المسيحية فىٰ أول أمرها تفصل فصلاً تاماً بين الدين والفلسفة ، ولكن لما أصبحت المسيحية هىٰ العقيدة الرسمية لأوروبا فىٰ عهد قسطنطين انقسمت السلطة إلىٰ قسمين :ـ

١ـ سلطة دينية يرأسها الكهنة والباباوات ، وهىٰ مستحوذة علىٰ كل ما يتعلق بالدين.

٢ـ سلطة دنيوية يرأسها الإمبراطور الذىٰ كان بدوره تحت إمرة كهنة الكنيسة .

ثم تطور الأمر بعد ذلك لتصبح الكنيسة مهيمنة علىٰ كل شئ ، إلىٰ أن تتلاشىٰ سلطتها تدريجياً حتىٰ قضت حركة الإصلاح الدينىٰ علىٰ سطوتها. [2]

أما عن العلاقة بين العقل والوحىٰ فىٰ الفلسفة المسيحية : فقد كانت هذه القضية من أهم قضايا الفلسفة الوسيطة ، وقد انقسم فلاسفة العصر الوسيط حيالها إلىٰ اتجاهين :

---

(١) راجع : مدخل جديد إلىٰ الفلسفة د/ عبد الرحمن بدوىٰ ص ٢١٢

(٢) راجع : حكمة الغرب برتراند رسل ١/ ٢١٤ ، ط عالم المعرفة ، الكويت ، ومقدمة فىٰ الفلسفة العامة د/ يحيىٰ هويدىٰ ص ٥٤ وما بعدها ، ط تاسعة ، ١٩٨٩ دار الثقافة للنشر.

الأول : يرىٰ أن الوحىٰ والعقل متغايران ، فيمكننا أن نقبل شيئًا بالعقل ، ونعتنق ما يناقضه بالوحىٰ ، ولعل من رحم هذا الاتجاه انطلقت بعض الأفكار الدينية المناقضة وعلل قبولها بكونها وحيًا واجب القبول كالتثليث والصلب والفداء وغيرها. (١)

الثانىٰ : ويرىٰ أتباعه وحدة مصدر كلٍ من العقل والوحىٰ ، فمصدرهما هو الله ، وبالتالىٰ يستحيل أن يتعارضا ، ويجب التوفيق بينهما ، ولا مانع أبداً أن تستند الفلسفة إلىٰ الوحىٰ ، وتستلهمه ، وتكون فلسفة جيدة . (٢)

ومع ذلك فالوحىٰ له مكانه الأرفع ، وما جاء به الوحىٰ فوق قدرة العقل ، ومحال أن يصل إليه العقل مستقلاً ، ومن ثم فلا دور له إلا التلقىٰ والقبول ، فالمسائل التىٰ جاء بها الوحىٰ قابلة للبرهنة العقلية كالخلق والبعث وبعض الصفات الإلهية . (٣)

---

(١) تاريخ الفلسفة الأوروبية فىٰ العصر الوسيط د / يوسف كرم ص ١٧ / ط مؤسسة هنداوىٰ ، القاهرة ، وتاريخ الفلسفة والعلم فىٰ أوربا الوسيطية ص ٧ ، جونر ، ترجمة : علىٰ زيعور .

(٢) راجع : روح الفلسفة المسيحية فىٰ العصر الوسيط ص ٤٥٨، إتين جلسون ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، طبعة ثالثة ، ١٩٩٦ ، مكتبة مدبولىٰ بالقاهرة .

(٣) راجع : تاريخ الفلسفة فىٰ العصر الوسيط د/ يوسف كرم ص ١٧ ، ط مؤسسة للتعليم والثقافة ، القاهرة ، ومصادر المعرفة فىٰ الفكر الدينىٰ والفلسفىٰ ص ١١١، ١١٢

وبجانب هذا الاتجاه المعتدل اتجاه آخر أوغل فى التطرف ، و دعى اتباعه إلى الاستغناء بالوحى عن العقل ، بل قالوا بأن الفلسفة عدوة للدين ، وقد ردد (ترتوليانس ١٥٥ ـ ٢٣٠ م) قوله : " بعد المسيح والأنجيل لسنا بحاجة إلى شئ " ، ويؤكد غيره على أن العلم بالغيبيات لا يكون إلا عن طريق الوحى ، وأى معرفة بشرية فى هذا الموضوع تكون نا قصة ، ويجمل هذه العلاقة (بطرس دميانى ١٧٠٢) الذى يقول بوجوب وقوف جميع المناهج الفكرية من الكتب المقدسة موقف الخادم من السيد.(١)

وبجانب هذه الاتجاهات المتطرفة ظهر اتجاه حاول أتباعه التوفيق بين الوحى والعقل بتحديد مجال ومهمة كل منهما ، ومع ذلك فهما لا ينفصلان بل يتكاملان ، فالعقل مهمته التأمل والتفكر لكى يصل فى النهاية إلى الإيمان ، وبعد الإيمان تبقى مهمة العقل تفهم الدين وتقريب قضاياه إلى الأذهان ، ويمثل هذا الاتجاه كل من أوغسطين وتوما الإكوينى .(٢)

وبالجملة : فالوحى فى الفلسفة المسيحية شغل حيزاً كبيراً من هذه الفلسفة ، وكان موضوعاً مطروقاً على عكس الفلسفة اليونانية القديمة ، ومع

(١) راجع : فلسفة العصور الوسطى د/ عبد الرحمن بدوى (مقدمة الكتاب) وص ٦٧ ، ط ثالثة ، دار القلم بيروت ، ١٩٧٩

(٢) لتفصيل فلسفة أوغسطين وتوما الأكوينى راجع حكمة الغرب ص ٢٢٧، ص ٢٦٩

الاتفاق علىٰ ثبوته إلا أن الخلاف حول موقعه وموقفه من الفلسفة .

بقىٰ هنا سؤال يطرح نفسه وهو : ما هو الوحىٰ المقصود فى الفلسفة المسيحية ؟

الوحىٰ المقصود فى المسيحية هو الأناجيل النصرانية المعتبرة عندهم التىٰ أقروها فى مجمع (نيقية) عام ٣٢٥ م ، وهىٰ : متىٰ - يوحنا - مرقس - لوقا ، بالإضافة إلىٰ رسائل الرسل ، والتىٰ تسمىٰ بالكتاب المقدس عندهم . [١]

تعقيب على الوحى المقصود فى الفلسفة الوسيطة :

١- هذه الأناجيل محل نقد ، وبالتالىٰ تكون فكرة الوحىٰ لديهم منقوضة من أصلها ، وبمجرد النظر إلىٰ مضمون الوحىٰ المزعوم لديهم وما اشتملت عليه كتبهم من خرافات وتناقضات ، تجعلنا نجزم بأن هذه الاناجيل لم تنزل علىٰ سيدنا عيسىٰ ، ولم يملها علىٰ حواريه ، وإنما كتبت بعده ، وهىٰ مجرد خواطر لأصحابها ، ومحاولة منهم لتذكر تعاليم المسيحية ، وهذه الأناجيل يحوطها الغموض والتناقض باعتراف علماء النصارىٰ أنفسهم . [٢]

٢- كتبت هذه الأناجيل فى جو مزدحم بالاضطرابات والاضطهادات ،

---

(١) راجع : المسيح والتثليث د/ محمد وصفىٰ ص ١١٥ ، ط دار الفضيلة

(٢) راجع : محاضرات فى النصرانية للإمام محمد أبىٰ زهرة ص ٣١ ، ط دار الفكر العربىٰ

وأشد ما نزل بهم من أذىٰ كان فىٰ عهد نيرون و تراجان وديسيوس ، وفىٰ ظل هذه الاضطرابات تأتىٰ الكتب مشوشة غير منضبطة ، هذا عن الكتب العادية فضلاً عن كتاب يصفونه بالقداسة ، ويضفون عليه من التعظيم والاحترام ألواناً ، هذا بالإضافة إلىٰ تأثر كتب النصرانية بفلسفة الإغريق وقانون الرومان حتىٰ أصبحت الأناجيل لا تمثل حقيقة الديانة النصرانية.(١)

٣ـ الوحىٰ المزعوم عندهم لا ينطبق عليه الشروط التىٰ يجب أن تكون فىٰ الكتب المقدسة ، فهىٰ ليست منسوبة لسيدنا عيسىٰ صاحب الرسالة ، وإنما هىٰ منسوبة لأصحابها ، وأصحابها ليسوا رسلاً ، بل أشخاص أصحاب هذه الأناجيل غير معروفة يقيناً ، كما أنهما مليئة بالتناقض والاختلاف ، ولم تنسب لأصحابها تواتراً فضلاً عن نقلها إلىٰ أتباعهم. (٢)

ـ هذا عن الوحىٰ فىٰ نظر فلاسفة العصور الوسطىٰ ، أما عن الوحىٰ كحقيقة واقعة فىٰ الديانة النصرانية : فهو الإنجيل الذىٰ أوحاه الله إلىٰ سيدنا عيسىٰ ـ عليه السلام ـ وقد أكد القرآن الكريم علىٰ هذه الحقيقة ، قال تعالىٰ ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾

---

(١) راجع : محاضرات فىٰ النصرانية ٢٨

(٢) راجع : السابق ص ٧١ ، والمسيح والتثليث د/ محمد وصفىٰ ص ٣٠ ، ط دار الفضيلة.

[المائدة آية: ٤٦] ، كما عبر فى موضع آخر بلفظ الإنزال فى قوله تعالىٰ ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران آية: ٣] ، فإنزال الإنجيل علىٰ سيدنا عيسىٰ حقيقة أقرها القرآن الكريم ، إلا أنه أمسك عن تعيين الكيفية .

ومن ناحية أخرىٰ جاءت إشارات فى الأناجيل التىٰ بين أيدىٰ النصارىٰ ، فنجد مثلاً كلمة إنجيل أو بشارة مضافة أحيانـًا إلىٰ المسيح ، وأحيانـًا إلىٰ الله ،وأحيانـًا إلىٰ ملكوت الله ، ففىٰ إنجيل متىٰ " وكان عيسىٰ يطوف كل الجليل يعلم فى مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت "(١)، وبشارة الملكوت هىٰ الترجمة اليونانية لكلمة إنجيل ، وجاء فى إنجيل مرقس " وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلىٰ الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول : قد كمُل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل " (٢)

والإنجيل المذكور فى هذه النصوص وغيرها ليس واحداً من الأناجيل المتداولة عند النصارىٰ ؛ لأنها لا تذكر إلا مضافة لأصحابها ، فالمرجح أن الإنجيل المذكور فى هذه النصوص هو الإنجيل الذىٰ نزل علىٰ عيسىٰ ، ومما يقوىٰ هذا الرأىٰ أننا وجدنا من مؤرخىٰ النصرانية المنصفين من يصرح بوجود رسالة فى القرن الأول تعتبر أصلاً لهذه الأناجيل ، ويجوز أن تكون هذه

(١) إنجيل متىٰ الإصحاح الرابع ط / ٣/ دار الكتاب المقدس

(٢) إنجيل مرقس الإصحاح الأول

الرسالة هىٰ الإنجيل الأصلىٰ ، لكن لا نملك أدلة قاطعة علىٰ هذا ، وإنما كلها مجرد اجتهادات وترجيحات . (١)

الوحى فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة :

بعد انقضاء العصر الوسيط ونهايته ، تغير الطابع الفكرىٰ فىٰ أوروبا ، ومن ملامح هذا التغير انحسار سلطة الكنيسة ، وتراجع أسهم رجال الدين ، فبعد بزوغ شمس النهضة العلمية ، وقيام ثورة الاصلاح الدينىٰ ، أخذت تتلاشىٰ سلطة الكنيسة وتظهر بالتدريج فلسفة جديدة عملت علىٰ تشكيل العالم الحديث كما نعرفه اليوم.(٢)

وكان لهذه الفلسفة نظرتها الخاصة فيما يتعلق بموضوعات الفكر الفلسفىٰ المعتادة من إنسانيات وطبيعيات وميتافزيقا، والوحىٰ من المباحث الميتافزيقية التىٰ تعرضوا لبحثها ، ولقد تعددت مواقف فلاسفة العصر الحديث من الوحىٰ بتعدد المذاهب والاتجاهات ، ومن أبرز هذه الاتجاهات :-

١- المعتدلون : وعلىٰ رأس هؤلاء ديكارت ومدرسته أصحاب الاتجاه

---

(١) راجع : محاضرات فىٰ النصرانية ص ٥٠ وما بعدها

(٢) حكمة الغرب ٢/ ١٩ ، وقصة الفلسفة الغربية د/ يحيىٰ هويدىٰ ص ٤٧ ، ط دار الثقافة.

العقلىٰ ، وبالرغم من أن ديكارت أقام مذهبه فىٰ المعرفة علىٰ الاستنباط العقلىٰ والحدس الرياضىٰ ، إلا أنه استثنىٰ من ذلك الوحىٰ الدينىٰ لكونه فوق متناول العقل ؛ ولأن البحث فيه لا يكون إلا بمدد من السماء ، هذا المدد لا يكون إلا من الله الذىٰ يلقيه علىٰ من يشاء من عباده ، فيرتفع بهم إلىٰ عقائد معصومة من الخطأ ، وبهذا يثبت ديكارت إمكان الإنتاج العقلىٰ مع الإيمان العميق بالوحىٰ.[1]

ومن بعده جاء تلميذه (اسبينوزا) الذىٰ اتسمت فلسفته كلها بالجانب الدينىٰ الأخلاقىٰ ، حتىٰ إنه سمىٰ بالفيلسوف الصوفىٰ ، وظهرت فكرة الوحىٰ و الإلهام فىٰ فلسفته ظهوراً لا ينكر ، فقد كان معنياً بالدين والفضيلة ، وسعىٰ جاهداً ليجد مكاناً للتقوىٰ ولحياة مكرسة لله .[2]

ومن بعد اسبينوزا جاء (ليبنتز) فخطا بهذه الفكرة خطوة أكبر، فعظم من شأن العقل وقدرته علىٰ تفهم الوحىٰ ، فقد كان يؤمن بأهمية المنطق العقلي فىٰ

---

(١) قصة النزاع بين الدين والفلسفة د/ توفيق الطويل ص ١٧٦ ، ط مكتبة الآداب ، بدون ، والفلسفة الحديثة من ديكارت إلىٰ هيوم د/ إبراهيم مصطفىٰ إبراهيم ص ٩٤ ط دار الوفاء .

(٢) راجع : تاريخ الفلسفة الغربية ٣/ ١١١ ، وتاريخ الفكر الفلسفىٰ د/ محمد علىٰ أبو ريان ٤/ ١٠٠ ، ط دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٦

الميتافزيقا والمسائل الدينية ، حتىٰ قال عنه (برتراند رسل) " إن ليبنتز فى تفكيره الخاص أفضل نموذج لفيلسوف يستخدم المنطق كمفتاح للميتافزيقا" (١)

ومن بين المتحمسين للوحىٰ ظهر من بالغ فىٰ نزعته كالفيلسوف الفرنسىٰ بسكال ١٦٢٣ـ ١٦٦٢ الذىٰ أعلىٰ من شأن الوحىٰ ، وحط من قيمة العقل ، وقرر أن القلب هو الذىٰ يستشعر الله لا العقل ، وهذا هو الإيمان ، والإيمان ليس علماً بل اعتقاد ، ولا يكف بسكال عن الحط من قيمة العقل والتقليل من دوره فىٰ الإيمان ، وينعىٰ علىٰ العقل سعيه للحكم علىٰ كل شئ ، ويطالبه بالتزام حدوده.(٢)

وهكذا نرىٰ أن أصحاب الاتجاه العقلىٰ مع اعترافهم بالوحىٰ وتعظيمهم لدوره وأنه فوق مستوىٰ التعقل ، إلا أنه ظهر فىٰ جملتهم من تخلىٰ قليلاً عن هذه الفكرة وأفسح للعقل مكاناً أوسع وأتاح له فرصة النظر إلىٰ مقررات الوحىٰ بعين النقد ، كما رأينا عند ليبنتز .

---

(١) راجع : تاريخ الفلسفة الغربية ٣/ ١٣٩ وراجع منه ص ١٣٥أيضاً .

(٢) راجع : مدخل جديد إلىٰ الفلسفة د/ عبد الرحمن بدوىٰ ص ٢١٤ ، والفلسفة الحديثة من ديكارت إلىٰ هيوم د/ إبراهيم مصطفىٰ إبراهيم ص ١٥٢

٢ـ الاتجاه الثانى : المتطرفون : بجانب من اعتدل فى فكره ونظر إلى الوحى بعين الاعتبار هناك من تطرف فى معتقده كالفيلسوف (هيجل) الذى رفع العقل على الوحى واعتبر أن العقل هو المكمل لما فى الوحى من نقص ، ومن مفاخر الإنسان أنه يستطيع تبرير الإيمان بالفكر والعقل ، وقال بأن الدين لا يجد الحق إلا فى الفلسفة ، ومنهم من بالغ أكثر واعتبر الوحى الإلهى خرافة ، بل نظر إلى الإنسان باعتباره مصدر الأديان ، وقد ظهر هذا الاتجاه واضحاً فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة بداية بأصحاب الفلسفة التنويرية والرومانتيكية الذين قالوا بأن الدين ينبع من القلب والعاطفة والضمير كما لو كان ينبع من أصل أولى مستقل ، وموضوع الدين إشباع حاجات القلب ، والتحرر من الشهوة ، والسمو بحياتنا الخلقية ، ومروراً بأصحاب المذاهب النفعية الحسية إلى أن نصل إلى المذاهب التى جاهرت بمعاداة الأديان ونبذ فكرة الإله من أصلها كالماركسية والوجودية والوضعية المنطقية ، وغيرها من الفلسفات اللادينية .[١]

وبعد : فقد كانت هذه مجرد لمحات موجزة أردت أن ألقى ضوءاً عاماً على وضع الوحى فى الفلسفات المختلفة ليكون بمثابة التتبع السريع للفكرة

(١) راجع : مدخل جديد إلى الفلسفة ص ٢١٤ والعلم والدين فى الفلسفة المعاصرة ص ٢٧، ٢٨

فى مراحل الفكر الإنسانى ، ننتقل بعد ذلك إلى المقصد الأهم من هذا البحث ، وهو نظرية الوحى لدى فلاسفة الإشراق من المسلمين.

المبحث الثالث

الوحى عند فلاسفة الإشراق من المسلمين

المعنىٰ بالبحث هنا : الفارابىٰ وابن سينا ؛ لأنهما أكثر الشخصيات التىٰ أثارت جدلاً واسعًا فىٰ الفكر الإسلامىٰ ، كما أن نظريتهما فىٰ الوحىٰ يترتب عليها اتهامهما بالقول بكسب النبوة بمزيد من الرياضات الروحية والترقيات العقلية ، وسوف أعرض نظريتهما فىٰ الوحىٰ فىٰ نقاط متتابعة كما يلىٰ :

المعرفة الإشراقية وصلتها بالوحى :

المعرفة الإشراقية هىٰ معرفة قائمة علىٰ الذوق ، وهىٰ لا تأتىٰ بالطريق الواقعىٰ حيث البدء بالحسىٰ للوصول إلىٰ العقلىٰ ، أو بالجزئىٰ للوصول إلىٰ الكلىٰ ، وإنما هىٰ ناتجة عن مصدر إلهىٰ سواء كان ذلك فيضًا من العقل الفعال أو اتصالاً بالعقول المفارقة ، وغاية الإشراق هو الاتصال بالعقل الفعال ، ولا يتم إلا بقطع طريق طويل من التجرد من غطاء البدن وقطع عقبات النفس ، وقد تجلت النزعة الإشراقية بشدة عند الفلاسفة فىٰ نظرية الفيض وفىٰ شرحهم لكيفية الوحىٰ ، والاتجاه الإشراقىٰ فىٰ الفلسفة يقابله

الاتجاه المشائئ القائم على التأمل والاستنباط العقلئ وترتيب مقدمات للوصول إلى نتائج.[1]

وبهذا التقرير لا تخفى الصلة الوثيقة بين الوحي والمعرفة الإشراقية لديهم ، فالوحي ما هو إلا صورة من صور المعرفة الإشراقية،وقد اتضح الإشراق عند كل من الفارابي وابن سينا وضوحاً كاملاً، فقد كانا مرجعاً لكل من جاء بعدهما[2]

وفيما يلي بيان للإشراق والترقي المعرفي عندهما:

أولاً : الإشراق عند الفارابي :

تمر العملية المعرفية عند الفارابي في سلسلة متتابعة مترقية الخطوات ، فهي تبدأ بالحس، إلا أن الحس لا يدرك حقيقة الأشياء ، وإنما يدرك وجود الشئ ، أو يدركه محاطاً بصور مادية من كم وكيف وغير ذلك ، ولا يتثبته بعد زواله.[3]

(١) راجع : الإنسان في الفلسفة الإسلامية د/ إبراهيم عاتي ، ص ١٨٤ ومابعدها ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣

(٢) راجع نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ٣٨٣

(٣) راجع : فصوص الحكم ٢١٤، ٢١٥ ضمن مجموع رسائل الفارابي ط الهيئة العامة للكتاب

فالمرحلة الأولىٰ فىٰ الترقىٰ المعرفىٰ هىٰ الحس ، ولا يدرك العقل إلا عن طريق الحواس ، وهذا تصريح منه بفكرة الوسائط التىٰ قالها قبل ذلك فىٰ الخلق ، فقد أحال أن تصدر الكثرة عن الواحد ؛ ولذا استعان بفكرة الوسائط ، وقال بالعقول العشرة التىٰ تنتهىٰ بالعقل الفعال ، وعنه تكون الموجودات.(١)

وها هو يصرح هنا بنفس الفكرة لكن فىٰ المعرفة ، فأثبت بين العقل والشىء المدَرك واسطة ، وهىٰ الحس المشترك ، ثم تصل إلىٰ التخيل ثم إلىٰ قوة التمييز ، وفىٰ النهاية تصل الصورة إلىٰ العقل منقحة مجردة عن علائقها المادية.(٢)

وهكذا فإن النفس هىٰ التىٰ تدرك عن طريق الحواس ، وهىٰ تقطع رحلة شاقة فىٰ التجرد حتىٰ تبقىٰ مستعدة لتلقىٰ الإشراقات من العقل الفعال ، والروح فقط هىٰ وسيلة تلقىٰ الإشراق.(٣)

وبجانب الروح والحس هناك روافد أخرىٰ لتلقىٰ الإشراقات وهىٰ:

ا ـ القوة الناطقة : وهىٰ التىٰ يعقل بها المعقولات ، وبها يقع التمييز بين

---

(١) راجع : عيون المسائل ١٣٤ ضمن مجموع رسائل الفارابىٰ ، وقد تكلمت عن الفيض تفصيلاً فىٰ بحث منشور بحولية كلية الدراسات الإسلامية بالأسكندرية عام ٢٠١٥

(٢) راجع : مجموع رسائل الفارابىٰ ١٧٨

(٣) راجع : فصوص الحكم ٢١٦ (ضمن مجموع رسائل الفارابىٰ)

الجميل والقبيح ، وبها يتعلم العلوم والصناعات ، وبها النزوع والميل نحو ما يريده.

ب -القوة المتخيلة : وهىٰ التىٰ تحفظ ما ارتسم فىٰ النفس من المحسوسات بعد غيابها عن الحواس ، وبهذه القوىٰ أيضـاً يقع التمييز بين المدركات الحسية ، وبجانب هاتين القوتين : الإحساس ، والنفس التىٰ هىٰ آلة المعرفة الإشراقية.(١)

ولكن العمدة فىٰ الإدراك عنده هو النفس التىٰ تخدمها كل القوىٰ وبها تفعل ، وهذه من خواص الانسان ، فالإنسان من جملة الحيوانات مميز بأن له نفساً تفعل أفعالها بالآلآت والقوىٰ (٢)

وبعد ذلك يذكر الفارابىٰ تدرج العقل فىٰ المعارف الإشراقية :-

فأول درجاته: العقل العملىٰ ، وهو الذىٰ يستنبط ما يجب فعله من الأعمال الإنسانية ، وبه يقع التمييز بين الحسن والقبح .

ثانيها : العقل العلمىٰ ، وهو الذىٰ يتم به جوهر النفس وله مراتب : فهو عقل بالقوة ، ثم يكون عقلاً مكتسباً ، أو بالملكة ، ثم يصير عقلاً مستفاداً ،

---

(١) راجع : آراء أهل المدينة الفاضلة ٨٧ ، ٩٠ ، ط ٧ ، دار المشرق ، بيروت .

(٢) راجع : عيون المسائل ١٤٠ (ضمن مجموع رسائل الفارابىٰ)

وفي هذه المرحلة يتصل بالعقل الفعال فيشرق عليه بالمعارف.[1]

ولا يخفى هنا العنصر الأرسطي في فلسفة الفارابي ، فهذه التقسيمات للعقل مقتبسة من تقسيم (الإسكندر الأفروديسي) ، وهو من أكبر شراح أرسطو ، إلا أننا نجد أن التقسيم عند الإسكندر ثلاثياً (العقل الهيولاني ، العقل بالملكة ، العقل الفعال) ، وعند الفارابي رباعياً بإضافة مرتبة العقل المستفاد .[2]

ويزيد الفارابي هذه المراتب إيضاحاً في كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة ، فيقرر أن للعقل تسميات بحسب مراتبه كما يلي :

١ـ العقل بالقوة (الهيولاني) وهو هيئة ما في مادة ، وهو قوة قابلة لأن تدرك المعقولات ، ولعله يقصد بهذه القوة الاستعداد الفطري للتعقل ، وهذه القوة ليست عقلاً بالفعل ، بل بالقوة لأن من شأنها أن تعقل ، وهي تحتاج لأن تكون عقلاً بالفعل إلى شئ آخر ينقلها من القوة إلى الفعل.

٢ـ العقل بالفعل : وهو حصول التعقل بالفعل ، وتحقق العقل بالفعل يحتاج إلى ذات معقولة تنقله من القوة إلى الفعل ، ومنزلة العقل بالفعل للعقل

---

(١) راجع : عيون المسائل ١٤١ ، وتاريخ الفلسفة العربية د/ كامل حمود ، ط دار الكتاب اللبناني ، طبعة أولى ١٩٩٠

(٢) راجع : الإنسان في الفلسفة الإسلامية د/ إبراهيم عاتي ،ص ١٦٢ ومابعدها

بالقوة كمنزلة الشمس من البصر ، فإن البصر قبل الإبصار قابل لذلك ، والأشياء المبصرة قابلة لذلك ، ولكن قبل الضوء لا تبصر العين ولا ترى الأشياء ، ومع الضوء تنتقل القوة على الإبصار إلى إبصار بالفعل.

فكذلك العقل قبل أن يتعلق بشئ معقول هو عقل بالقوة ، وبعد تعلق بالمعقولات هو عقل بالفعل ، ويسمى كذلك بالعقل الفعال، وهذا العقل يضئ عقل الإنسان ويجعله يدرك المعقولات ، وهذا ضرب من الإشراق.[1]

فالمبادئ الأولى للمعرفة عند الفارابى ترجع إلى فيض العقل الفعال بعد استعداد النفس له ، وإذا تحققت هذه المعرفة لا تحتاج إلى مادة ، وبهذا تبلغ النفس قمة سعادتها ، فإن السعادة عنده تعنى تبرؤ النفس من عالم المحسوسات وانخراطها فى عالم المعقولات ، فلا تحتاج فى قوامها إلى مادة أبداً .[2]

وهكذا تتم المعرفة الإشراقية ، ومن ثم يحصل للنفس سعادتها وكمالها ، وتتميز المعرفة الإشراقية عند الفارابى باليقين والمطابقة بين الصور الذهنية الخارجى ؛ وذلك لأن مصدرها هو الفيض من العقل الفعال ، ولعنا نلمح المنزع الصوفى للنظرية ، فإن المعرفة الإشراقية مسبوقة برحلة من المجاهدات

---

(١) راجع : آراء أهل المدينة الفاضلة ١٠١ـ١٠٤ ، وتاريخ الفلسفة العربية ١٣٢

(٢) راجع : آراء أهل المدينة الفاضلة ١٠٥

الفكرية والبدنية ، ويتلو هذه الرحلة الفيض من العقل الفعال على العقل الإنساني ، وهذا الفيض لا حدود له ، بمعنى أنه من الممكن أن يكون فيضاً لمعارف وحيية ، وبهذا يتضح لنا مدى ارتباط فكرة الإشراق بنظرية الوحي .

وهذا الكلام مخالف لصريح النصوص التي تكلمت عن الوحي ، وجعل العقل الفعال كبديل عن ملك الوحي جبريل فكرة أبعد فيها الفلاسفة النجعة ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، إذ بإثباتهم لملك الوحي بهذه الصورة يضفون على قضية الوحي تعقيداً وغموضاً ، وهذا التفسير لا يخدم القضية بقدر ما يضرها ، وسيأتي مزيد بيان لنقد نظريتهم في المبحث الأخير من هذا البحث إن شاء الله تعالى .

ثانياً : الإشراق عند ابن سينا :

وعلى نهج سلفه سار ابن سينا ، فشرح فكرة الإشراق بمزيد من النصوص والعبارات وأخذ يضرب الأمثلة ويبين مراحل حصولها على النحو التالي :

١ـ تبدأ عملية الإشراق بالإدراك الحسي ، فإن الحواس تدرك الأشياء وذلك بأخذ صورة مجردة تجريد ما ، ويبقى لدى الحواس شوائب مادية

للأشياء المدركة ، فبداية المعرفة انتزاع صورة مجردة عن المدركات.[1]

ولما كان التجرد عن المواد قد لا يتم بالحس وحده كان لا بد من درجة أعلىٰ تنتقل إليها المدركات الحسية لتتهيئ للتجرد التام وهىٰ الخيال .

٢ـ الخيال : وهو ملكة ناتجة عن الإحساس ، وهو يجرد الأشياء عن علائقها المادية بشكل أوضح ، يقول ابن سينا " وأما الخيال فإنه يبرئ الصورة المنزوعة عن المادة تبرئة أشد .. ويجردها عن المادة تجريداً تاماً " [2]

ويعود ابن سينا ليهيئنا إلىٰ الدرجة التالية ، فيقرر أن المتخيلة لم تجرد المدركات عن المواد تماماً ؛ لأن الصور فىٰ المتخيلة تكون علىٰ حسب الصور المرتسمة فىٰ الحس بكم وكيف ، فإننا حينما نتخيل الانسان لا نتخيل الصورة العامة التىٰ يشترك فيها كل أفراد النوع الانسانىٰ ، وإنما نتخيله مرتبطاً بشخص ، وبالتالىٰ لابد لنا من الترقىٰ إلىٰ درجة أعلىٰ لنواصل رحلة التجرد عن المادة وعلائقها ، وهذه الدرجة هىٰ الوهم.[3]

٣ـ الوهم : وهذه الدرجة فيها تتحرر النفس قليلاً عن المادة وعلائقها ،

---

(١) راجع : النجاة ٢/ ١٦ ، ط أولىٰ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٢ ، وابن سينا ومذهبه فىٰ النفس د/ فتح الله خليف ص ٨٩ ، ط جامعة بيروت العربية .

(٢) النجاة ٢/ ١٧ بتصرف ، وراجع : ابن سينا ومذهبه فىٰ النفس ص ٨٩

(٣) راجع النجاة ٢/ ١٧.

فإن موضوع الوهم هو الأمور المعنوية التىٰ ليست بمادية ، ولكنها قد تكون فىٰ مواد ، كالأشكال والألوان والشر والخير وغيرها من الصفات التىٰ ليست مادية فىٰ نفسها ، لكنها لا تتحقق إلا فىٰ موضوع مادىٰ .[1]

٤ ـ من أجل ذلك بقيت المعرفة لها صلة ما بالمادة ، ومن ثم لم يكن الوهم أخر المطاف ، وبعده مرحلة أخرىٰ ، وهىٰ التعقل .

والعقل عنده ـ كما عند الفارابىٰ ـ مسمىٰ بأسماء مختلفة علىٰ حسب مراحل الإدراك فهو :

١ ـ العقل الهيولانىٰ أو العقل بالملكة : ويطلق علىٰ القوة الفطرية المركوزة فىٰ كل إنسان ، وهذه القوة من شأنها أن تعقل وتدرك ، وهذه القوة تعود إليها المعارف الضرورية كعلمنا بأن الكل أكبر من الجزء ، وهو بمنزلة الضوء الذىٰ تعطيه الشمس للبصر ، وهذه القوة سماها الفارابىٰ كذلك عقلاً بالقوة .

٢ ـ العقل بالملكة : وهو المرتبة الوسطىٰ ، ومثله ابن سينا بحال الأمىٰ المستعد لتعلم الكتابة ، وهذه المرتبة يختلف الناس فىٰ تحصيلها :

---

(١) راجع : النجاة ٢/١٨ ، وابن سينا والنفس الإنسانية ص ١٢٥ د/ محمد خير حسن ، وحسن ملا عثمان ، طبعة أولىٰ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٢

- فمنهم من يحصلها بشوق وبباعث من الحركة الفكرية ، وهم أصحاب الفكرة .

ـ ومنهم من يظفر بها من غير طلب وحركة فى المعقولات ، وهم أصحاب الحدس ، والحدس هو القوة القدسية التى بها يتلقى الإنسان ما لا يتلقاه غيره ، وبذلك يكون الحدس صورة من صور الوحى الإلهى عند ابن سينا .

٣ـ العقل بالفعل أو العقل المستفاد : فإن الصور التى أدركها العقل تصبح مخزونة فيه ، فإذا شاء طالعها واستحضرها فعقلها ، وعقل أنه عقلها ، فحينئذٍ هو عقل بالفعل أو عقل مستفاد. [1]

وبهذا تتم مراتب التجرد ، وتصبح النفس فى النهاية مستعدة ومؤهلة للاتصال بالعقل الفعال لتلقى عنه العلوم والمعارف الإشراقية ، وهذا التجرد يعود بالنفس إلى طبيعتها الأولى ، كل على حسب استعداده واجتهاده ، وتصبح النفس شاملة لكل الموجودات شمولاً عقلياً بعيداً عن شوائب

(١) راجع : النجاة ٢/ ١٣ ، والإنسان فى الفلسفة الإسلامية د/ إبراهيم عاتى ،ص ١٦٣ ، وابن سينا د/ مصطفى غالب ص ٤٩ ، ط بيروت ١٩٩٨ ، والفلسفة الإسلامية للعقاد ص ٨١

المادة. (١)

وقد ذكر ابن سينا أن فى قوله تعالىٰ ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ ﴾ [سورة النور آية: ٣٥]

تمثيل وبيان لهذه المراتب كما يلىٰ :

فالمشكاة :هىٰ العقل الهيولانىٰ لكونها مظلمة فىٰ ذاتها قابلة للنور لاعلىٰ التساوىٰ.

والزجاجة : هىٰ العقل بالملكة ؛ لأنها شفافة فىٰ نفسها قابلة للنور أتم قبول.

والشجرة الزيتونة : هىٰ الفكرة لكونها مستعدة لأن تصير قابلة للنور بذاتها ، لكن بعد حركة كثيرة وتعب .

والزيت : يشبه الحدس لأنه أقرب إلىٰ ذلك من الزيتونة ، وهو يرجع إلىٰ العقل بالملكة .

والتىٰ يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار : يشبه القوة القدسية ؛ لأنها

(١) راجع : الإشارات ٤/ ٢٢

تكاد تعقل بالفعل ولو لم يكن شئ يخرجها من القوة إلىٰ الفعل .

ونور علىٰ نور : يشبه العقل المستفاد ، فإن الصورة المعقولة نور، والنفس القابلة لها نور آخر.

والمصباح : يشبه العقل بالفعل ؛ لأنه ينير بذاته من غير احتياج إلىٰ نور يكتسبه.

والنار : تشبه العقل الفعال ؛ لأن المصابيح تشتعل منها . [1]

وقد جمع ابن سينا هذه المعانىٰ فىٰ بيتين فقال :

إنما النفس كالزجاجة والعلم ** سراج وحكمة الله زيت

فإذا أشرقت فإنك حىٌ ** وإذا أظلمت فإنك ميت

وبهذا يؤكد ابن سينا علىٰ أن حياة العارفين ولذتهم لا تكون إلا بهذا النوع من المعرفة الخاصة ، فالعارف لا يخرج من الظلمة إلىٰ النور إلا بإشراق حكمة الله عليه ، فيتلقىٰ الفيوضات اللدنية من غير بخل ولا احتجاب ، نورانية

---

(١) راجع : الإشارات والتنبيهات ٢ / ٣٩٤ ، تحقيق : د/ سليمان دنيا ، ط ٣ ، دار المعارف.

الوحئ لا تكون إلا عن العقل الفعال . (١)

ومن خلال الكلام السابق يتضح لنا أن ابن سينا متأثر بشدة فئ حديثه عن المعرفة الإشراقية بنظرية المثل الأفلاطونية ، فابن سينا يرئ أن مصادر المعرفة هئ الحس والعقل بدرجاته ابتداءً من العقل الهيولانئ وصولاً إلىٰ العقل المستفاد ، بينما يرئ أفلاطون ، المعرفة العقلية اليقينية ثابتة فوق الحس فئ عالم المثل ، والاتصال بهذا العالم والتلقئ عنه لا يكون إلا بعد الوصول إلىٰ درجة عالية من الاستنارة والشفافية العقلية والنفسية . (٢)

ويتضح لنا كذالك حرص ابن سينا علىٰ التفرقة بين طريقين آخرين من طرق المعرفة ، وهما: الفكر العقلئ والحدس النورانئ ، فإن الفكر العقلئ حاصل بالكسب والتدرج والانتقال من المعلوم إلىٰ المجهول بخلاف الحدس ، فإنه يرد علىٰ النفس دفعة واحدة من غير طلب. (٣)

---

(١) راجع : ابن سينا والنفس الإنسانية ص ١٢٨ ، د/ محمد خير حسن ، وحسن ملا عثمان ، طبعة أولىٰ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٢ ، والفلسفة الإسلامية وأعلامها د/ يوسف فرحات ص ١١٣ ، ط أولىٰ ، ١٩٨٦ ، نشر : ترادكسيم ، سويسرا

(٢) راجع الاتجاه الإشراقئ فئ فلسفة ابن سينا ، د / مرفت عزت بالئ ص ٤٨٤ ط أولىٰ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٤

(٣) راجع الإشارات ٢/ ٣٩٣

فطريق الفكر طريق عام يرتاده طلاب الحكمة والمعرفة النظرية العقلية ، أما الحدس: فهو الطريق التىٰ تحاول فية النفس جاهدة الوصول الىٰ هدفها بالاتصال بالعقل الفعال ، وذلك عقب رحلة طويلة من المجاهدات .

وفىٰ الحدس تأتىٰ المعارف الكلية مباشرة بلا واسطة ، عن طريق إشراق العقل الفعال أو العقول المفارقة (الملائكة) وهذا الطريق شاق ، ولا تقوىٰ عليه إلا النفوس التىٰ كبحت جماح الشهوة وترفعت عن الصغائر ، فأصبحت كالمرآة المجلوة التىٰ ينعكس عليها الإشراق الإلهىٰ ، وهذا الوصف ينطبق كلية علىٰ الأنبياء والعارفين ، فهؤلاء وأن ظهروا لنا متسربلين فىٰ جلابيب من أبدانهم ، إلا أنهم تجردوا عنها إلىٰ عالم القدس .[1]

فلا سلطان للشهوات ولا للأبدان علىٰ نفوس العارفين ، والتحافهم بجلابيب الأبدان إنما هو أمر ظاهرىٰ ، فأبدانهم ليست تحول دون خلوصهم إلىٰ عالم القدس ، وهم لشدة صفاء نفوسهم ونقاء سريرتهم يبدون وكأنهم قد خلعوا تلك الأبدان. [2]

وفكرة تجرد العارفين من جلابيب الأبدان التىٰ يقررها ابن سينا تتشابه تماماً مع فكرة الأفلاطونية المحدثة ، فقد قرر أفلوطين هذه الفكرة ذاتها ،

---

(١) راجع : الإشارات ٤/ ٤٧

(٢) راجع : الاتجاه الإشراقىٰ فىٰ فلسفة ابن سينا ٤٨٥

وقال بأن الإنسان حينما يصل إلىٰ قمة المعرفة الذوقية يترك جسمه الحسىٰ ، ويغيب عن كل ما سوىٰ الله ، وهذه الحالة حالة وحدة وفناء فىٰ الموجود الأعلىٰ . (١)

ولكن لما كان الحدس والمعرفة الإشراقية التىٰ تتم بالاتصال بالعقل الفعال حاصلة للأنبياء والأولياء كان لابد من ثمة فرق بين النبىٰ والعارف : وهذا الفرق يتمثل فىٰ أن الإشراق حاصل للعارف بعد رحلة طويلة من المجاهدات. (٢)

أما الأنبياء فهو حاصل بالطبع ؛ إذ أن لديهم استعداد تام لقبول الإلهام لما لهم من اعتدال مزاج البدن ومنزلة فىٰ الإشراق الكلىٰ ، وهذه الصفات هىٰ التىٰ تجعل النبىٰ علىٰ قمة الهرم الإنسانىٰ ، وهم أكمل ممثلين للنوع البشرىٰ ؛ ولذا يفوضون فىٰ الرسالة والتشريع ؛ لأنهم متميزون عن بقية البشر بالتلقىٰ عن العقل الفعال والعقول المفارقة مباشرة .(٣)

---

(١) راجع أفلوطين د/ مصطفىٰ غالب ، ص ١١ ، ١٢ ، ط دار الهلال ١٩٨٧

(٢) راجع : الإشارات ٤/ ٣٢

(٣) لعلنا نلحظ هنا أن ابن سينا لم يختلف كثيراً عن الفارابىٰ فىٰ تصويره لفكرة الوحىٰ ؛ ولذا يتوجه علىٰ نظريته ما توجه علىٰ نظرية الفارابىٰ من بعدها صورة الوحىٰ التىٰ أتت بها النصوص ، ومخالفتها لما علم من الدين بالضرورة .

فتفاوت الحدس يرجع إلىٰ التفاوت فِى الاستعداد للتلقىٰ عن العقل الفعال والعقول المفارقة ، ولما كان النبىٰ أقوىٰ البشر استعداداً كان أقواهم حدساً وتلقياً.[1]

ويتصل بالتفرقة السالفة بين اتصال النبىٰ واتصال العارف بالعقل الفعال بيان الفرق بين الإشراق عند كلٍ من الصوفية والفلاسفة ، وبيانه كما يلىٰ :

ـ الإشراق عند الفلاسفة ـ كما سبق ـ يمر فِى خطوات متتابعة ودرجات مترقية ،فهو يبدأ بالحس ، ثم ينتقل إلىٰ العقل بدرجات مختلفة بداية من العقل الهيولانىٰ ، ثم العقل العملىٰ ، ثم العقل المستفاد ، ثم الانتهاء إلىٰ العقل القدسىٰ وهو الآلة التىٰ بها تلقىٰ الإشراق ، فالمعرفة الإشراقية عندهم ليست مباشرة .

كذلك : هىٰ عندهم معرفة لا محدودة ، بل قد تنتهىٰ عندهم إلىٰ اكتساب ما لا يكون بالكسب كالنبوة ، وهذا باطل .

وأيضــًا الإشـراق عنـدهم وإن كـان مصـدره الله بدايـة إلا أنـه لايكـون إلا بواسطة العقل الفعال أو العقول المفارقة .

(١) راجع : الإشارات ٢/ ٣٩٥ ، و الاتجاه الإشراقىٰ ٤٨٦

ـ أما الإشراق عند المتصوفة فيتخذ مفهومـًا دينيـًا خالصـًا ، فهو معرفة نورانية مصدرها العلم الذى يقذفه الله فى القلب ، وهو المسمى عندهم بالإلهام .

وأيضـًا : الإشراق الصوفى معرفة مباشرة لا تمر على الحواس أو العقل ، بل إنها تعد ثورة على المعرفة الحسية والعقلية ، وأصل الإشراق الصوفى الموهبة الربانية ، لا دخل فيه للكسب .

كذلك : المعرفة الإشراقية عند الصوفية غايتها علوم لدنية لا تكون إلا لمن شاء الله ، فلا ينتهى بهم الإشراق إلى اكتساب النبوة أو مزاحمة النبى فى مكانته. [1]

ولكن هنا لنا أن نسأل ابن سينا عن درجة عقل الأنبياء والعارفين ، هل هى العقل المستفاد أم شئ آخر ؟ وهنا يجيبنا ابن سينا بأن معارف الأنبياء والأولياء لا تكون إلا بدرجة أخرى من درجات العقل الهيولانى ، هذه الدرجة تسمى بالقوة القدسية أو العقل القدسى ، وهو من جنس العقل بالفعل ، لكنه رفيع جداً ، ولا يشترك فيه الناس كلهم ، وهذا العقل القدسى هو الدرجة القصوى والتى يمكن من خلالها تبادل الألفة مع العقل الفعال أو

---

(١) راجع : نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ص ٦٧٢

ملاك الوحىٰ ، وهذه الحالة تمثل فىٰ أوج اكتمالها الحالة الخاصة لخاطر النبوة [1].

وهذه القوة القدسية ليست جسماً ؛ لأن المعقولات لا ترتسم فىٰ جسم ، فلا بد من القول بوجود شئ خارج عن جوهرنا فيه الصور المعقولة بالذات ، وهذا الشئ هو الجوهر العقلىٰ بالفعل ، فإذا حدث اتصال بينه وبين نفوسنا ارتسم فىٰ نفوسنا الصور العقلية الخاصة بهذا الاستعداد الخاص. [2]

تعقيب على المعرفة الإشراقية :

ـ بعد هذا العرض الموجز لنوع المعرفة التىٰ تتفرع منها المعرفة الوحيية عند الفارابىٰ وابن سينا ، وهىٰ المعرفة الإشراقية نلاحظ أن طبيعتها عند كلٍ منهما عقلية إشراقية ، تجعل العقل طريقاً للمعرفة العقلية من جهة كونه عقلاً بالقوة ، وهو مصدر للمعرفة الإشراقية من جهة كونه عقلاً فعالاً .

فالمعرفة عند كليهما تبدأ بالحس ، ومن الحس تنتزع الصورة المجردة لتنتقل إلىٰ الخيال ، ثم الوهم ، ثم التعقل بدرجاته بدءاً من العقل بالملكة إلىٰ العقل المستفاد حتىٰ يتم الاتصال بالعقل الفعال ، وهو الذىٰ يشرق عليها

(١) راجع : : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٤٩ ، هنرىٰ كوربان ، ترجمة : نصير مروة وحسن قبيسىٰ ، مراجعة : موسىٰ الصدر ، طبعة ثانية ١٩٩٨ ، عويدات ـ بيروت

(٢) راجع : الإشارات ٢/ ٤٠٠ ، ٤٠١

بالعلوم والمعارف ، وبهذا تعود النفس إلىٰ جوهرها العقلىٰ وإلىٰ وحدتها وكليتها.

وبدء الإشراق بالحس ليس بمستغرب ، فإن الجسد الحسىٰ مع كونه سجنًا للنفس إلا أنه ضرورىٰ فىٰ المعرفة ، فإن النفس إذا استخدمته كما ينبغىٰ استطاعت أن تكتسب معارف حسية تتيح لها الارتقاء إلىٰ المعارف العليا ، وعندئذٍ تتحقق ماهيتها أىٰ تصبح كالمرآة المجلوة التىٰ تنعكس فيها إشراقة العقل الفعال والملائكة والجواهر العالية ، وبهذا يكون لها اللذة الحقيقية والجمال والبهاء ، فسبيل النفس أن تجعل البدن والآلات البدنية مكاسب يكتسب الكمال الخاص . [1]

ـ وفىٰ هذا التدرج التصاعدىٰ تبدو النزعة الأرسطية واضحة ، فقد قرر أرسطو أن المعرفة تبدأ من الوجود الأدنىٰ الذىٰ تغلب عليه المادية ، ثم تمضىٰ متدرجة إلىٰ الوجود الإنسانىٰ ، ثم تصعد درجة أخرىٰ لتصل إلىٰ الأجرام السماوية ، ومنها إلىٰ عقولها ، ثم إلىٰ الإله ، وهذ الفكرة الأرسطية تكررت بجوهرها فىٰ فكرة الإشراق عند فيلسوفىٰ الإسلام . [2]

---

(1) راجع : أرسطو عند العرب د/ عبد الرحمن بدوىٰ ص ٤١ ، ط ٢ الكويت ، ١٩٧٨ .

(2) راجع نظرية المعرفة عند أرسطو د/ مصطفىٰ النشار ، ص ٩٦ ، ط دار المعارف ١٩٩٥

- وأيضـًا : ينبغىٰ أن نفهم أن اتصال العقل المستفاد (الإنسانىٰ) بالعقل الفعال (واهب الصور والعلوم) ليس تصريحـًا بوحدة الوجود ؛ لأن العقل المستفاد لا يتحد بالعقل الفعال ، وإنما يبقىٰ مستعداً ومهيئًا لتلقىٰ الفيوضات والإشراقات. [1]

وبهذا يتبين لنا خطأ (دىٰ بور) فىٰ اتهامه للفارابىٰ وابن سينا بوحدة الوجود ، فقد اعتبر أن كلامهما ستار يستران به عقيدة وحدة الوجود عن طريق القول بفناء العقل الإنسانىٰ فىٰ العقل الفعال ، ومن ثم فناء الوجود فىٰ الوجود. [2]

إلا أن تصريح كلٍ منهما بالثنائية - أعنىٰ الثنائية المعرفية التىٰ تتألف من موضوع المعرفة والذات العارفة - وهذه الثنائية تنطق بها تقريبـًا كل كلمة من نصوصهم التىٰ عرضناها، فالحديث بينهم شائع عن طرفين : واجب وممكن ، وعن الحس والعقل ، وعن المادة والتجرد بمراتبه ، وهذه الثنائية تقطع الطريق علىٰ كل من اتهمهم بوحدة الوجود ؛ إذ إن أصحاب هذا المذهب لا يتحدثون

---

(١) راجع : نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ٣٩٢

(٢) تاريخ الفلسفة فىٰ الإسلام ، دىٰ بور ، ترجمة : د/ محمد عبد الهادىٰ أبو ريدة ص ١٥٢

إلا عن موجود واحد، ويحرصون على إذابة كل وجود سوى وجود الواجب ، والكل متحد فى ذاته. [1]

ـ كذلك : المعرفة الإشراقية عند كل من الفارابى وابن سينا قد جنحت جنوحاً ملحوظاً ناحية التصوف ، فقد رأيناهم يتكلمون عن مقامات العارفين ويميزون بين أسمائهم، ويتحدثون بلسان الصوفية حتى نظنهم متصوفة، لكنه ليس تصوفاً عملياً قائماً على التزكية والعبادات ، وإنما هو تصوف عقلى فلسفى قائم على النظر العقلى والإشراق ، واللغة الصوفية البادية فى كلامه ما هى إلا محاولة للتعبيرعن التعليل العقلى الفيضى للخلق والوجود والتفسير الإشراقى الإلهامى. [2]

ـ وأيضاً : لا تعدم شبهاً بالمثل الأفلاطونية ، فالمعرفة الحقة هى الموجودة فى عالم المثل التى لا تتلقى بالآلات الحسية ، وإنما تدرك بالعقل الصرف ، هى نفس الفكرة التى يرددها فلاسفة الإشراق مع اختلاف المسميات. [3]

(١) راجع : نظرية المعرفة ٣٩٢

(٢) راجع : الإشارات ٤/ ٥٦ ، وفى الفلسفة الاسلامية ١/ ٣٩ ، و نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ص ٣٨٩

(٣) راجع : أفلاطون ص ٥٦ ، تأليف : فالترز ، ترجمة إبراهيم خورشيد ، ط بيروت

ـ أما عن طبيعة المعرفة الإشراقية عند كلٍ منهما : فيرىٰ د/ محمد البهىٰ أن نظرية المعرفة عند كلٍ منهما تجمع بين الواقعية والمثالية ، فهىٰ فىٰ بدايتها واقعية ؛ إذ انها تبدأ من عالم الحس وتتعامل مع الموجودات ، والإنسان بوصفه كائنًا مفكراً يسعىٰ لاستكشاف أسرار الطبيعة وتنتهىٰ فىٰ النهاية إلىٰ المثالية ، فالمعارف لها مثال فىٰ عالم المجردات ، ولها أصل تعود إليه وهو العقل الفعال ، وما فىٰ الواقع يماثل ما فىٰ العقل الفعال ، وهذا يذكرنا بعالم المثل عند أفلاطون. [1]

كيفية الوحى عند فلاسفة الإشراق :

الوحىٰ ما هو إلا صورة من صور المعرفة الإشراقية عند الفلاسفة ، فالوحىٰ هو صلة العقل المستفاد بالعقل الفعال ، وانتقاشه بما فيه من العلوم والمعارف ، ولا يكون ذلك إلا لمن ارتقىٰ عقله وأصبح مستعداً لتقبل الأنوار الإلهية بغير معلم ، ويسمىٰ العقل حينئذٍ بالعقل القدسىٰ أوالروح القدسية ، والعقل القدسىٰ يتصل بعقول الأفلاك (الملائكة) ، ويتصل كذلك بالعقل الفعال ، وهو عقل فلك القمر.

(١) راجع : الجانب الالهىٰ من التفكير الاسلامىٰ د/ محمد البهىٰ ٢/ ١٤٤ ، ط ٢عيسىٰ الحلبىٰ ١٩٥١ ، وفىٰ الفلسفة الإسلامية ٢/ ١٧٩

وحينئذٍ يتمكن الإنسان من رؤية الملك وسماع كلامه ، وهذا الملك مطلع على ما فى اللوح ، فيطلع العقل القدسى عليه بلا واسطة ، وكذلك يتم الاتصال عن طريق اتصال الروح ، وينتج عن هذا الاتصال انطباع ما فى العقل الفعال فى العقل الإنسانى المستفاد ، كما تطلع الشمس على الماء الصافى ، فتعكس صورتها فيها، وكما تحاذى المرآة المجلوة الأشياء ، فتنطبع صورتها فيها .

وكلامهم عن ملك الوحى وعن الملائكة على جانب كبير من الغرابة والغموض ومجافاة النصوص الصريحة ، كما أنها مخالفة لما اتفق عليه التكلمون من أن ملك الوحى وعامة الملائكة خلقهم الله على جبلة خاصة . [1]

المخيلة ودورها فى حصول الوحى :

ويرجع الوحى عند الفارابى وابن سينا إلى قوة المتخيلة ، فيقرران أن القوة المتخيلة إذا كانت فى إنسان ما قوية كاملة جداً ، وكانت المحسوسات الواردة عليها من خارج لا تستولى عليها ، فأنها تخدمها بقية القوى ، وتتصل بالعقل الفعال ، ولا يمتنع إذا بلغت القوة المتخيلة نهاية الكمال فى إنسان ما أن يقبل فى يقظته عن العقل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلة ، وتكون له

---

(1) راجع : شرح المقاصد ٣/ ٣١٨

نبوة بالأشياء الإلهية ، وهذه هىٰ أكمل المراتب التىٰ تنتهىٰ إليها القوة المتخيلة وأكمل المراتب التىٰ يبلغها الإنسان بقوته المتخيلة.[1]

وليس هذا التلقىٰ متاحـًا لكل النـاس ، فإن العقـل القدسـىٰ رفيـع جـداً ، وليس مشتركـًا بين كل الناس ، ولا يبعد أن تفيض القـوة القدسـية فيضـانـًا علىٰ القوة المتخيلة ، إلا أن العقول القابلة تتفاوت بحسـب استعدادها ، فـيمكن أن يكون شخص من الناس شديد صفاء النفس ، شديد التمسك بالمبادئ العقليـة فيكون قابلاً لإلهام العقل الفعال ، وهذا ضرب مـن النبـوة ، بـل أعلـىٰ درجـات النبوة ، والأولىٰ أن تسمىٰ هـذه القـوة قـوة قدسية ، وهـىٰ أعلـىٰ مراتـب القـوىٰ الإنسانية.[2]

ويصـاحب حالـة التلقـىٰ أمـور غيـر معتـادة : كالإغمـاء والغيبـة عـن المحسوسـات ، وكثيـراً مـا يتخيـل لـه أمثلـة وأشـباح كمـا فىٰ حـال النـائم أو المحمـوم ، ويخاطبـه هـذا الشـبح بألفـاظ مسـموعة تحفـظ وتتلىٰ ، وهـذا هـو الوحىٰ ، وهذه هىٰ النبوة بالقوة المتخيلة ، والذين يرون هذه الأمـور فىٰ اليقظـة يرونهـا لشـرف نفوسـهم وقوتهـا وقـوة متخيلـتهم ومتـذكرتهم ، فـلا تشـغلها

---

(١) راجع : آراء أهل المدينة الفاضلة ١١٥

(٢) راجع : النجاة ٢/ ١٥،١٤

المحسوسات عن أفعالها الخاصة .(١)

وبإعادة قراءة نصوص الفارابئ وابن سينا فى هذا الموضوع نجد أن كلاهما يؤكد علىٰ دور قوة النفس المتخيلة فى الوحىٰ ، فالنبىٰ يتصل عن طريقها بالعقل الفعال ، وهذا هو مصدر النبوة والوحىٰ ؛ وما ذلك إلا لأن العقل الفعال نفسه هو جبريل ، فالقضية ليست عقلنة الروح القدس بقدر ما هىٰ قدسنة العقل البشرىٰ ، فالإنسان لا يتلقىٰ بالمخيلة عن العقل الفعال إلا إذا كان قدسىٰ العقل . (٢)

فالقوة المتخيلة تلعب دوراً مهمـاً فى الأحلام والاطلاع علىٰ الغيب ، وهىٰ التىٰ تصل الإنسان بالعقل الفعل إذا قويت واستعلت علىٰ بقية القوىٰ ، و المتخيلة متفاوتة قوة وضعفاً ولهذا تباينت درجات الأنبياء والأولياء .

والمتخيلة : قوة متوسطة بين الحس والعقل ، تارة يجذبها العقل ، فتواصل ترقيها إلىٰ هدفها المنشود ، وهو الاتصال بالعقل الفعال ، وتارة يجذبها الحس ، فتتعطل عن خدمة النفس الناطقة ، وبهذا فكل إلهامات الأنبياء والأولياء أثر من آثار قوة المتخيلة ونتيجة من نتائجها. (٣)

---

(١) راجع : آراء أهل المدينة الفاضلة ١١٥

(٢) راجع : : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٥١ ، هنرىٰ كوربان

(٣) راجع : فى الفلسفة الإسلامية د/ مدكور ١/ ٧٧ والاتجاه الإشراقى ٤٨٧

ولم يقف دور المخيلة عند هذا الحد ، بل للمخيلة عند الفلاسفة ـ لا سيما الفارابى ـ جانب آخر، وهذا الجانب ألصق ما يكون بعلم النفس ، وقد أبان عنه خير بيان الدكتور إبراهيم مدكور، فأوضح أن المخيلة تلعب دوراً مهمـًا فى علم النفس ، فالمخيلة لها صلة بالميول والعواطف ، وهى تمد القوى النزوعية فى النفس بما يثيرها ويوجهها نحو غرض معين ، وتغذى الرغبة والشوق بما يدفعها إلى السير فى الطريق نحو الهدف حتى نهايته.

والمخيلة فى كل حال لا يقف دورها على مجرد الاحتفاظ بالصور الحسية وادخارها فحسب ، بل قد يكون لها ابداع وابتكار لا يحاكى المحسوسات ، وفى هذا إشارة إلى المخيلة المبدعة.[1]

يقول الفارابى " والمتخيلة بالطبع حاكمة على المحسوسات ومتحكمة عليها ، وذلك أنها تفرد بعضها عن بعض ، وتركب بعضها إلى بعض تركيبات مختلفة يتفق فى بعضها أن تكون موافقة للمحسوس ، وفى بعضها أن تكون مخالفة للمحسوس "[2]

وحديث فيلسوفى الإسلام (الفارابى وابن سينا) عن المخيلة وعن

---

(١) راجع : فى الفلسفة الاسلامية ١/ ٧٧

(٢) راجع : آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٨٩ ، والفلسفة الإسلامية وأعلامها د/ يسف فرحات ص ٨٠ ، ط أولى ، ترادكسيم ، جينيف ، سويسرا ، ١٩٨٦

دورها فى الوحى والاطلاع على الغيب ، لا يختلف كثيراً عن قول أرسطو بأن الحوادث التى أخبر الأنبياء بوقوعها قبل وقوعها على الشكل الذى أخبروا به ، إنما ترجع إلى قوة مخيلتهم تلك المخيلة التى صورت لهم أن العناية الإلهية كانت تخاطبهم، فصادف تحقق هذا الشئ الذى تخيلوه.(١)

دور المخيلة فى الأحلام وصلته بالوحى :

وتأكيداً لما مضى من بيان دور المخيلة فى الوحى ، تحدث فلاسفة الإشراق عن دور المخيلة فى المنامات ، وكيف يكون هذا وحيًا ؟

فى البدء يقررون أن القوة المتخيلة هى الحاكمة على تلك القوى ، وهى قادرة على الاحتفاظ بمدركات القوى الأخرى ، ولا تقتصر المخيلة فقط على مجرد اختزان الصور ، بل لها دور إبداعى ، فهى تركب بعض الصور إلى بعض ، ولها قدرة كذلك على المحاكاة ، فهى تحاكى سائر القوى النفسية ، ولها استعداد كبير للانفعال والتأثير ، وقد تفعل أفعالها يقظة أو منامًا ، فأحوال النائم النفسية والعضوية لها أثر فى مخيلته ، فالميول الكامنة والخبرات السابقة لحلم ما ذات دخل فى تكوينه وتشكيله ، فإننا نحلم مثلاً بالسباحة إذا

(١) راجع : الاتجاه الإشرقى فى فلسفة ابن سينا ٤٨٧

كان مزاجنا رطباً ، وهذا من فعل المخيلة.[1]

أما عن صلة المخيلة بالعقل الفعال : فإن العقل الفعال هو سبب انتقال العقل من القوة إلىٰ الفعل ، وهذا يتصل بعمل القوة الناطقة بنوعيها النظرىٰ والعملىٰ ، والمتخيلة هىٰ الموصلة بين النوعين ، وبالتالىٰ فإن الذىٰ تناله القوة الناطقة من العقل الفعال قد يفيض منه علىٰ المتخيلة ، فيكون للعقل الفعال فيها فعل ما ، فتقبل المتخيلة عنه المحسوسات بما هىٰ عليه والمعقولات بما يحاكيها من المحسوسات، وهذه الفيوضات الآتية للمتخيلة من العقل الفعال : منها ما هو حاضر وما هو مستقبل ، وهذه الإشراقات قد تكون فىٰ النوم ، وهىٰ الرؤيا الصادقة ، وقد تكون يقظة إلا أنها قليلة جداً ، ولا تكون إلا لقليل من الناس .[2]

وبعبارة أوضح أقول : المخيلة عند الفلاسفة تلعب دوراً مهمـاً فىٰ الأحلام ، فعندما يهبط الإدراك الحسىٰ إلىٰ أضعف درجاته عند النوم ، فإن الصور المختزنة فىٰ المخيلة تظهر للنائم وتخدعه ، لكن ليست الأحلام كلها خداعاً ، فهناك أيضاً الرؤيا الصادقة التىٰ تقع عن التخيل ، فعندما يعتاد

---

(1) راجع : آراء أهل المدينة الفاضلة ١٠٩ وفىٰ الفلسفة الإسلامية ١/ ٧٨ ، والإنسان فىٰ الفلسفة الإسلامية ١٤٥ .

(2) راجع : آراء أهل المدينة الفاضلة ١١٢/ ١١٣

الإنسان الصدق ويقهر التخيل الكاذب تقع له الرؤيا الصادقة ، ومن الناس من يرىٰ مثل هذه الرؤيا الصادقة يقظة وذلك إذا كان يتمتع بقوة فائقة من التخيل ، وهذه هىٰ النبوة .[1]

وهذا التصور للأحلام عند ابن سينا والفارابىٰ يمكننا أن نعتبره ابتكاراً وطرافةً ، إذ أنهما يحاولان تفسير الموضوعات الدينية الصرفة فىٰ ضوء علم النفس ، فيضيفان بذلك إلىٰ علم النفس الأرسطىٰ موضوعات لم يعرفها أرسطو من قبل ، كذلك هذا التصور الذىٰ قدمه الفلاسفة ـ علىٰ بساطته ـ سبقوا به كل الدراسات التىٰ قدمت فىٰ العصر الحديث لمحاولة تفسير ظاهرة الأحلام والمنامات.[2]

وخلاصة ما سبق : أن القوة المتخيلة هىٰ الوصلة النفسية بين المتلقىٰ للوحىٰ وبين مصدره ، فإن القوة المتخيلة القوية المتحررة من خدمة بقية قوىٰ النفس المستعلية عليها لها اتصال بالعقل الفعال ، وبهذا الاتصال يمكن تفسير ظاهرة التنبؤ وشرح كيفية الوحىٰ ، فمن الممكن أن يرىٰ من كانت مخيلته علىٰ هذا الوصف أشياء فىٰ غاية الكمال والجمال لا نظير لها فىٰ سائر الموجودات ،

---

(١) راجع : ابن سينا ومذهبه فىٰ النفس د/ فتح الله خليف ص ٩٢ ، ط جامعة بيروت ، ١٩٧٤.

(٢) راجع : ابن سينا ومذهبه فىٰ النفس ص ٩٣ ، وفىٰ الفلسفة الإسلامية ١/ ٧٨، ٧٩

ولا مانع أن يتلقىٰ عن العقل الفعال يقظة ، فيكون له علم بالأشياء الحاضرة والمستقبلة ، ويكون له نبوة بالأشياء الإلهية ، وهذا هو أكمل مراتب القوة المتخيلة ، ويلىٰ هذه المرتبة من يرىٰ هذه الأشياء بعضها يقظة والبعض الآخر منامـًا، ويليها من يرىٰ جميعها منامـًا ، وهؤلاء تكون أقوالهم التىٰ يعبرون بها عما يرونه عبارة عن رموز وتشبيهات .

وقد حاول الفلاسفة شرح كيفية الوحىٰ وتدعيمها بفكرة المنامات ـ كما سبق قبل قليل ـ إلا أنهم أساءوا التعبير أحيانـًا بتشبيه هذه الأحوال من حيث الكيفية بما يتخيل للمحمومين والمجانين من أشباح وأشياء لا وجود لها لفساد مخيلتهم .[1]

الوحى والعقول المفارقة :

ليس العقل الفعال وحده هو الذىٰ يمد المخيلة بالنبوءات والعلم بالأمور الإلهية ، بل هناك رافد آخر من روافد عالم الربوبية ، هذا الرافد هو العقول المفارقة أو الملائكة ، والملائكة هىٰ جواهر مجردة ، أو صور علمية ، جواهرها علوم إبداعية قائمة بذاتها ، وعلومها ليست ألواحـًا فيها نقوش أو صدوراً تحوىٰ علومـًا ، وإنما هىٰ علوم قائمة بذاتها ، وهذه العقول تلحظ ما فىٰ

---

(١) راجع : آراء أهل المدينة الفاضلة ١١٥ ، فىٰ الفلسفة الإسلامية ١/ ٨٠

عالم الغيب فتخاطبها عقول الأنبياء يقظة وتتلقى عنها ، ويتصل بها العارفون مناماً. (١)

يقول الفارابى : " الملائكة صور علمية .. وهى مطلقة لكن الروح القدسية يخاطبها فى اليقظة ، والروح البشرية تعاشرها فى النوم " (٢)

فالملائكة من طرق الوحى، ومن الوسائط بين عالم الأمر الأعلى (عالم الربوبية) وعالم الخلق، فالوحى نقل ما فى عالم الربوبية إلى الرسول بين الناس عن طريق الملائكة ، والملائكة عقول ينتقش فيها ما فى اللوح المحفوظ ، ومن الملائكة ينتقل إلى نفس النبى التى تكون كالمرآة المجلوة ينطبع فيها ما فى العقول المفارقة.

ولا يخفى على كل ذى نظر أن فكرة الفلاسفة عن الملائكة على جانب كبير من الغرابة ومجافاة النصوص ـ شأنها شأن جملة النظرية ـ فالملائكة ليست عقولاً أو علوماً إبداعية كما زعموا ، وإنما ما عليه المتكلمون أن الملائكة خلقهم الله جواهر مجرد نورانية ، وهم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة. (٣)

---

(١) راجع : فصوص الحكم ٢٠٩

(٢) السابق ٢٠٩ بتصرف

(٣) راجع شرح المقاصد ٣/ ٣١٨ وما بعدها

نعود إلىٰ كلام الفلاسفة فنقول : الوحىٰ بمصدريه ـ العقل الفعال والعقول المفارقة ـ ليصل إلينا يمر بمراحل:

أولاً : فىٰ البدء كان علماً ثابتاً فىٰ اللوح المحفوظ عند الله عز وجل .

ثانيـًا : ينطبع ما فىٰ اللوح المحفوظ فىٰ العقل الفعال أو فىٰ العقول المفارقة .

ثالثـًا : ينطبع ما في العقل الفعال وما فىٰ العقول المفارقة فىٰ نفس النبىٰ.

رابعـًا : يأخذ النبىٰ هذا الوحىٰ ويبلغه لعالم الخلق .

ويلحظ د/ محمد البهىٰ شبهـًا بين هذه الفكرة وبين ثالوث أفلوطين ، فأفلوطين قال بأن الموجود ثلاثة ، وهىٰ (الواحد والعقل والنفس) ، والعقل هو الواسطة بين الواحد والنفس ، فكذلك فعل الفارابىٰ ، فجعل العوالم ثلاثة : عالم الربوبية وعالم العقول وعالم الخلق .[1]

وها هنا سؤال يطرح نفسه بقوة وهو : هل تطيق مخيلة النبىٰ مهما قويت علىٰ الاتصال بالملائكة ؟

للجواب عن ذلك يقرر الفارابىٰ أن الملائكة لها ذوات حقيقية ، ولها تمثلات أخرىٰ يطيقها البشر ، فذواتها الحقيقية أمرية منتسبة لعالم الأمر

---

(1) راجع : الفارابىٰ الموفق والشارح د / محمد البهىٰ ص ٢٤ ط أولىٰ ١٩٨١ مكتبة وهبة ، وقارن : حكمة الغرب ١/ ٢٠٨ ، وتاريخ الفلسفة الغربية ١ / ٤٤٢

والربوبية ، ولها أيضـاً تمثلات أخرىٰ تتمثل بها حينما تلاقيها الروح القدسية ، فتتمثل له بالصورة التىٰ يطيقها ، فيرىٰ النبىٰ الملك علىٰ غير صورته ، ويسمع كلامه ، وقد يحدث الوحىٰ أيضـاً عن طريق اللقاء الروحانىٰ بين عقل الملك ونفس النبىٰ ، فينطبع بما فيه كما تنطبع صورة الأشياء فىٰ المرآة المجلوة ، وهذا الاتصال مبرر لحدوث تغيرات ظاهرة علىٰ الموحىٰ إليه من إغماء أو عرق شديد أو رعدة ونحو ذلك.[1]

وهذه المحاولة العقلية الفلسفية التىٰ قدمها الفلاسفة لبيان اتصال النبىٰ بالملك أو لشرح فكرة وكيفية الوحىٰ عموماً غير موفقة ، فهىٰ بجانب كونها فكرة غريبة عن حديث القرآن والسنة عن الوحىٰ قائمة علىٰ أصول وافتراضات غير مسلمة مثل :

١ـ اعتبار الملائكة عقولاً ٢ ـ كون اللقاء بين الملك والنبىٰ روحانياً.

٣ ـ أن الملك يعلم ما فىٰ اللوح المحفوظ مطلقاً ، وهذا مخالف لقوله تعالىٰ ﴿ عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الجن

---

(١) راجع : فصوص الحكم ٢٢١

الآيتان: ٢٦ ، ٢٧]   ٤ ـ زعموا أن الملائكة تتشكل مع كونها عقولاً ، وهذا تناقض واضح .

ولعل دافع الفلاسفة للخروج بهذه الفكرة هو محاولة التوفيق بين فكرة العقول الأرسطية وبين ما جاء فى الإسلام عن الملائكة والوحى ، والمتصدى لمثل هذا التوفيق سيجد حتمًا بين الطرفين تناقضًا.[1]

(١) راجع : الفارابى الموفق والشارح د / محمد البهى ص ٢٧

المبحث الرابع

وحى النبوة عند الفلاسفة

رأينا فيما سلف أهم المحاور التى تقوم عليها نظرية الوحى عند الفلاسفة ، وفيما يلى سنقترب أكثر من أرقى صور الوحى عندهم ، وهى وحى النبوة لنرى هل تأثرت نظرتهم للنبوة بتفسيرهم للوحى ؟

فى الواقع فكرة النبوة عند الفلاسفة لا تنفصل عن كلامهم فى الوحى ، فإن الكلام فى النبوة كلام فى الوحى فى أرقى صوره ، ولما كان الإيمان بالنبوات أحد أركان الإيمان كان الحديث عن وحى النبوة عندهم أولى بالاهتمام ، فأقول : لقد ظهر أثر نظريتهم فى الوحى على نظرتهم للنبوة من خلال النقاط التالية :

١ ـ تقريرهم لحاجة البشر للرسل. ٢ ـ خواص الرسل والأنبياء عندهم.

٣ ـ كلامهم عن معجزات الأنبياء ، وفيما يلى بيانها بإيجاز :

أولا : وجه حاجة البشر إلى الرسل على طريقة الفلاسفة :

بنى الفلاسفة رأيهم فى وجه حاجة البشر على قواعد مترتبة وهى :

١ ـ الإنسان يسعى نحو الكمال.

٢ـ كمال الإنسان لا يكون إلا فى مجتمع من بنى نوعه.

٣ـ هذا المجتمع لا بد له من شريعة ضابطة .

٤ـ هذه الشريعة لا تكون إلا لإنسان مطاع له خصوصية ، وهذ هو النبىٰ.

وبناءً علىٰ ذلك قرروا أن الإنسان مدنىٰ بطبعه ، يتعايش مع بنىٰ جنسه ويتعاون معهم فىٰ جلب المنافع ودفع المضار ، فالإنسان لا يستقل بأمر معاشه ولا تحسن معيشته إذا انفرد ، " ولابد أن يكون الإنسان مكفياً بآخر من نوعه يكون ذلك الآخر مكفياً به وبنظيره ، حتىٰ إذا اجتمعوا كان أمرهم مكفياً "(١)

فإن الإنسان له حاجات متعددة متنوعة فهو بحاجة إلىٰ غذاء وكساء ومسكن وسلاح ، وكلها تعود إلىٰ صناعات وحرف لا يقوم بها واحد ، فلابد من المعاملة والمشاركة مع آخرين ، وهذه المعاملة تقع علىٰ ضربين :ـ

أ ـ المعارضة : وتعنىٰ اختلافهم فىٰ الصناعات والحرف بأن يكون أحدهم نجاراً والآخر نساجاً والثالث خبازاً .

ب ـ المعاوضة : وتعنىٰ المبادلة فيما بينهم لنتاج صناعاتهم ، وبهذا يكتمل للإنسان قوامه ويبلغ أفضل كمالاته. (٢)

يقول الفارابىٰ " وكل واحد من الناس مفطور علىٰ أنه محتاج فىٰ قوامه وفىٰ أن يبلغ أفضل كمالاته إلىٰ أشياء كثيرة لايمكنه القيام بها وحده ، بل يحتاج إلىٰ قوم يقوم له كل واحد منهم بشئ مما يحتاج إليه "(١)

---

(١) النجاة ٢/ ١٦٥

(٢) راجع : شرح المقاصد ٣/ ٢٨٢

إذن فالإنسان لابد له من معاملة مع بنىٰ جنسه ، وهذه المعاملة لابد لها من قانون ينظمها ، وإلا لطغىٰ كل واحد منهم علىٰ صاحبه ، فإن الإنسان كما هو مدنىٰ بطبعه هو أنانىٰ بطبعه ؛ لأن الخير مطلوب لذاته ، وكل فرد يريد تحصيل جميع الخيرات لنفسه ، وهذا سبب كافٍ لوقوع العداوات وظهور الخصومات ، فلابد من شريعة ضابطة وقانون ينظم التعامل بين الأفراد ، ويحفظ العدل بينهم ، ولابد فى المعاملة من سنة وعدل. (٢)

وهذه الشريعة الضابطة يلزم أن تكون مبنية علىٰ العدل والإنصاف ، ضابطة لما لا حصر له من الجزئيات ، مشتملة علىٰ الثواب والعقاب والترغيب والترهيب ، مبينة للعبادات والمعاملات والحقوق والواجبات ، كل ذلك يلزم أن يكون فى نصوص مكررة تتلىٰ وتحفظ ، وشريعة بهذا الوصف لا يمكن أن تنسب إلىٰ الأفراد ؛ لأنهم سيختلفون علىٰ من سيضعها ، ولو تُرك وضعها لشخص معين أو لطائفة معينة لوضعت وفقـًا لهواهم ؛ ولذا لابد أن يكون هذا الشرع مستنداً إلىٰ شارع متميز مختص باستحقاق الطاعة لخصوصية فيه ، لينقاد الناس له ، كذلك يجب أن يكون بشريـًا لتسهل

=

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة ١١٧، والنجاة ٢/ ١٦٥

(٢) راجع : الاتجاه الإشراقىٰ فى فلسفة ابن سينا ٤٩٠ والنجاة ٢/ ١٦٥ ، والمدينة عند الفارابىٰ ، د/ علىٰ عبد الواحد وافى ص ٣٦ ، ط نهضة مصر .

مراجعته فى المعضلات ، وهذا الإنسان هو النبى ، والخصوصية هى البعثة والمعجزة . [1]

ومن الجلى الواضح النزعة الاجتماعية بجانب الناحية العلمية والفلسفية فى تقرير وجه الحاجة إلى الرسل ، ويعتبر الأستاذ / العقاد هذه النزعة هى معقد الطرافة والجدة فى كلام الفلاسفة فى هذه الجزئية ، حيث إنهم جعلوا للنبوة وظيفة حيوية فى بنية المجتمع الإنسانى ، هذا بجانب الوظيفة التوجيهية الإرشادية التى يقوم بها النبى من خلال مخاطبته للناس على قدر عقولهم ، وشرح تفاصيل الثواب والعقاب ، وتأصيل سائر الأحكام . [2]

فضرورة النبوة عندهم ضرورة اجتماعية إنسانية منطلقة من داعيين :

أ ـ داع فلسفى يجعل النبوة قسماً مكملاً للنظام الكونى .

ب ـ داع إرشادى يقرب المؤمنين من هذا النظام بالهداية .

وكذلك رسالة النبى لها اتجاهان :

أ ـ اتجاه عملى يهدف إلى نشر المبادئ السماوية .

---

(1) راجع : النجاة ٢/ ١٦٦ وشرح المقاصد ٢/ ٢٨٢ ، والمدينة الفاضلة د/ على عبد الواحد وافى ص ٦٩

(2) راجع : الفلسفة الإسلامية (ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ العقاد) المجلد التاسع ص ٣٤٢ ، ط دار الكتاب اللبنانى ، طبعة أولى ١٩٧٨ .

ب ـ اتجاه غيبيٰ ميتافزيقىٰ ، وهذا لا يستطيع تحديده والعلم به إلا النبىٰ ؛ لأنه هو المتصل بعالم الأفلاك . [1]

وأيضـًا يتميز تقريرهم لحاجة البشر للأنبياء بالتسلسل المنطقىٰ ، فقد ساروا فىٰ خطوات منطقية متتابعة بدءاً من النظر فىٰ طبيعة الإنسان الأنانية ، واحتياجه الفطرىٰ إلىٰ الاجتماع مع غيره نتيجة لعجزه وقصوره مهما تعددت مواهبه علىٰ الوفاء بكل متطلباته الضرورية ، فلابد من المعاونة بما تشمله من معارضة ومعاوضة ، وهذا كله لا بد له من شريعة ضابطة لا تكون إلا لإنسان مميز بخصوصيات لا تكون لغيره ، وتتابع الأفكار لتنتهىٰ بنا إلىٰ حتمية وجود مشرع مختص بخصوصيات ، وهذا يسلمنا إلىٰ النقطة التالية فىٰ رأيهم عن النبوة لنكمل معهم سلسلة الأفكار المترتبة المتتابعة ، وهىٰ : خواص النبىٰ عندهم .

ثانياً : خواص النبى عند الفلاسفة :

يرىٰ الفلاسفة أن الرسول لابد أن يكون له خواص لازمة للنبوة ، ومنها:

١ـ الاطلاع علىٰ المغيبات : فإن النبىٰ لقوة مخيلته وصفاء نفسه يمكن أن يتصل بعقول الأفلاك أو بالعقل الفعال المشتمل علىٰ الغيوب الحاضرة والمستقبلة فتنتقش نفسه بما فىٰ هذه العقول فيعلم الغيب. [1]

(١) راجع الفلسفة الإسلامية وأعلامها ، د/ يوسف فرحات ص ١١٤ .

= وهذه الخاصية مبنية علىٰ نظرية الفيض ، وتفسير الخلق بمجرد صدور آلىٰ وفيض من الواحد ، فيصدر عنه العقل الأول ، ثم الثانىٰ ....إلىٰ أخر العقول العشرة التىٰ تنتهىٰ بالعقل الفعال ، ونظرية الفيض باطلة عصية علىٰ الفهم ، وعليها إشكالات لا تقبل الحل ، ويترتب عليها ما يناقض إرادة الله واختياره ، كما أن الفيض يعجز عن تفسير الإبداع الظاهر فىٰ الكون .

= كما أنها مبنية علىٰ تفسير الوحىٰ بمجرد إشراق واتصال بالعقل الفعال ، أو لقاء روحانىٰ بين النبىٰ والملك ، وهذا تفسير غريب لم يأت فىٰ قرآن ولا سنة .

= كما أن كلامهم يقتضىٰ أن النبىٰ هو الذىٰ يطلع علىٰ الغيب بنفسه ، وهذا باطل مخالف للقرآن ، قال تعالىٰ ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الجن الآيتان: ٢٦ ، ٢٧] ، وأيضاً لو أرادوا أن النبىٰ يطلع علىٰ كل الغيبيات فليس هذا شرطاً فىٰ كون الشخص نبياً ، وإن أرادوا أن النبىٰ يطلع علىٰ بعض الغيبيات ، فليس هذا خاصاً بالنبىٰ ؛ إذ قد يحصل هذا لغيره .

=

(١) راجع : شرح المقاصد ٣/ ٢٨٣

٢ـ مشاهدة ملك الوحىٰ وسماع كلامه : والسبب فى ذلك يرجع إلىٰ قوة المخيلة ، فإن المخيلة إذا قويت يمكن أن تتمثل لها العقول المجردة (الملائكة) صوراً ، ويحاولون تقريب هذه الفكرة للأذهان بتمثيلها بحال المرضىٰ والمحمومين ، فقد يشاهدون صوراً غريبة ، ويسمعون أصواتاً عجيبة ليست معدومة ولا موجودة ، يقول الفارابىٰ : " ..فترىٰ (الأنبياء) ملكاً علىٰ غير صورته ، وتسمع كلامه بعد ماهو وحىٰ "(١)

= وهذه الخاصية أيضاً مبنية علىٰ فاسد أصولهم فى الوحىٰ ، كما أن فيها سوء تعبير بتمثيل وحىٰ الأنبياء بأوهام المرضىٰ وخيالات المحمومين ، وهذا قدح فى الأنبياء ، وتشكيك فيما يتلقونه من شرائع ، وفتح لباب الطعن فى النبوة. (٢)

ثالثاً : ظهورالمعجزات على أيديهم :

وقد فسر الفلاسفة ظهور خوارق العادات تفسيراً فلسفياً يعود إلىٰ نظريتهم فى الوحىٰ ، فقالوا بأن نفوس الأنبياء لقوتها تؤثر فى مادة العالم ، فتنقلب العصا حية ، ويتفجر الماء من الحجر ومن بين الأصابع ، وغير ذلك

---

(١) فصوص الحكم للفارابىٰ ٢٢١ بتصرف

(٢) راجع : شرح المقاصد ٣/ ٢٨٥ ، وراجع الإشارات ٤/ ١٣٩

من الخوارق ، فإن حال النفس مع البدن حال تدبير وتصرف ، وبذلك تكون هذه النفوس لفرط قوتها كأنها نفس مدبرة لأكثر أجسام العالم.(١)

يقول ابن سينا " فلا تستبعدن أن يكون لبعض النفوس ملكة يتعدىٰ تأثيرها بدنها، وتكون لقوتها كأنها نفس للعالم ... فلا تستنكرن أن يكون لبعض النفوس هذه القوة حتىٰ تفعل فى أجرام أخر ، ولا تستنكرن أن تتعدىٰ من قواها الخاصة إلىٰ قوىٰ نفوس أخرىٰ تفعل فيها. "(٢)

وهذه الخوارق فكرتها واحدة ، وكيفتها واحدة ، إلا أنها تتنوع باختلاف مرجعها :

فإن كان مرجعها إلىٰ خصوصية النفس ومزاجها الأصلىٰ ، فهىٰ المعجزة ، وإن كان مرجعها إلىٰ الكسب والرياضة ، فهىٰ الكرامة.(٣)

= **ومن قبيل الخوارق** : بعض التصرفات الغير معتادة : كالإمساك عن الطعام مدة غير معتادة ؛ وذلك يعود لسببين :

أ ـ الأول بدنىٰ: فإن النفس حينما تتوجه إلىٰ العالم القدسىٰ وتتبعها القوىٰ الجسمانية وتترك أفاعيلها من الهضم والغذاء والشهوة ، ويتبع ذلك

---

(١) راجع : شرح الإشارات للطوسىٰ بهامش الإشارات ٤/ ١٥٢

(٢) الإشارات ٤/ ١٥٣ـ١٥٤

(٣) الإشارات ٤/ ١٥٥ وما بعدها بتصرف

السكون البدنى فلا نستبعد اختصاص الموحىٰ اليه بالإمساك عن الطعام مدة غير معتادة. [1]

ب ـ ثانيهما نفسىٰ : فحالة الفرح واللذة التىٰ تحصل للموحىٰ إليه بعد إشراق العقل الفعال عليه واتصاله بالملائكة قد تكون سبباً لفعل الخوارق ، ويقرب هذا إلىٰ الفهم ما نلاحظه من أن حالة الإنسان قد تؤثر فى قدرته وأفعاله ، فقد يعجز الإنسان عن فعل شىء أو تحريك جسم فى حالة خوفه ، بينما يستطيع ذلك فى ظروفه العادية ، وقد يفعل فى حالة طربه وفرحه أضعاف ما يفعله فى حال اعتداله ، ومن هنا فليس ببعيد أن يقدر النبىٰ علىٰ فعل ما لا يستطيعه غيره ، فقد رفع موسىٰ غطاء بئر لا يطيق رفعه إلا أربعون رجلاً ، وطاف سليمان علىٰ مائة امرأة فى ليلة واحدة .

= وكلام الفلاسفة هنا خرق لإجماع المتكلمين ، فإن المعجزة فعل الله لا تتوقف علىٰ اكتساب من النبىٰ ولا استحقاق أو خاصية فى بدنه أو فى نفسه ، وهذا التفسير العقلىٰ الفلسفىٰ ينال من قدسية المعجزة كدليل قوىٰ علىٰ صدق النبىٰ ، ويجعلها وكأنها حرفة تكتسب بشىء من المجاهدات ، وينسحب هذا الكلام علىٰ كرامات الأولياء ، فإنها ليست مكتسبة ، وإنما هىٰ من المنح

---

[1] الإشارات ٤/ ١١٢ وراجع شرحه للطوسىٰ بهامشه

الربانية التىٰ قد تقع وقد لا تقع ؛ ولذا فعلىٰ المكلف أن يكون طالبًا للاستقامة لا الكرامة.[1]

وهكذا يتجلىٰ لنا أثر نظرية الفلاسفة فىٰ الوحىٰ وكيفيته علىٰ رأيهم فىٰ النبوة من جهة احتياج البشر للنبىٰ ، ومن جهة خواص النبىٰ اللازمة له .

(١) راجع عوارف المعارف ص ٦٨ ، ط الأنوار المحمدية ، وشرح المقاصد ٣ / ٢٨٧

المبحث الخامس

نقد نظرية الوحى فى فلسفة الإشراق .

وبعد تقرير مذهب الفلاسفة فى الوحى وبيان وجهتهم يطيب لنا أن نتوجه إلى النظرية بتعقيب عام نسجل من خلاله على مذهبهم الملاحظات التالية :

١ـ معارضة النظرية للقرآن والسنة :

تفسير الوحى على هذا النحو النفسى الفلسفى يتعارض مع نصوص القرآن ، فحديث القرآن والسنة عن الوحى لم يكن على هذه الشاكلة ، وقد سبق هذا تفصيلاً فى صدر هذا البحث ، فالقرآن حصر طرق اتصال النبى بالملأ الأعلى فى الوحى مطلقاً من غير بيان للكيفية ، أو الكلام من وراء حجاب ، أو إرسال الملك إلى الموحى إليه ، وكذلك السنة بينت فى أكثر من حديث أن الوحى كان ينزل على النبى فى صورة بعض الأعراب ، وتصاحبه صلصلة الجرس أو ما يشبه دوى النحل ...وكل هذا يناقض ما ذكره الفلاسفة.

ويعلل د/ مدكور نظرية الفلاسفة هذه برغبتهم فى التوفيق بين الفلسفة والدين من جهة ، والرد على من أنكر الوحى ببيان أسسه العقلية والفلسفية من جهة ثانية ، لاسيما أن جهد الفلاسفة لم يكن موجهاً للمسلمين أصلاً ، وإنما كان موجهاً للمنكرين للوحى والنبوات بدعوى عدم استناده إلى العقل.[١]

---

[١] راجع : فى الفلسفة الاسلامية ١/ ١٠٢

ومن الباحثين من دعم هذا الجانب الدفاعى للنظرية ، وبين أن هذه النظرية كانت دفاعاً عن عقيدة النبوة ولم تكن هدماً لها ، ولا يتجلى لنا هذا الجانب إلا بالإلمام بالخلفية التاريخية للنظرية ، فقد كانت هذه النظرية فى وقت كثر فيه الهجوم واشتدت الحملة على عقيدة النبوة ـ لا سيما فى عصر الفارابى ـ ، ففى عصره نبغ (محمد بن زكريا الرازى المتوفى ٣١٣) هـ الذى طعن فى النبوة بكتابه (مخاريق الأنبياء) ، ومن هنا وقف الفارابى متصدياً له وهدم مقالته ، ولم يكتف بهدمها ، بل انتقل إلى تأسيس وبناء فكرة الوحى على أسس عقلية ؛ وذلك لأن الفارابى كان يدرك أن الطعن فى الوحى طعن فى الدين عموماً ، بل وهدم لكل دين سماوى ؛ لأن الوحى هو ميزة الأديان السماوية .

أضف إلى ذلك : أن النبوة بجانب كونها أصلاً من أصول الدين لها وظيفة اجتماعية سياسية ، فالنبى هو الرئيس فى المدينة الفاضلة ، وأى محاولة للطعن فى النبوة هى هدم للكيان السياسى للمجتمع ، فالدفاع عن النبوة وتأسيسها على أسس عقلية ونفسية دفاع عن التصور السياسى فى الإسلام .

فإذا فهمنا نظرية النبوة عند الفلاسفة فى هذا الإطار التاريخى والسياسى والاجتماعى أمكننا حل كثير من الإشكالات التى أثيرت حولها ، والنتائج التى بنيت عليها ـ والتى لم يدر بخلد الفارابى شئ منها ـ ، ولعرفنا أن هذه

النظرية فى جملتها محاولة جادة ومخلصة للدفاع عن عقائد الإسلام وفلسفة قواعده .[1]

وهذا التبرير مجرد محاولة لتخفيف بعض اللوم عن الفلاسفة إلا أنه - فيما أرى - لا يكفى فى الخروج بمثل هذه النظريات الغريبة ، فإن الوحى من الغيبيات ، والتوغل العقلى فيها على نحو ما صنع الفلاسفة لا يخدم قضية الدفاع عن العقيدة فى شئ ، والأولى التركيز على إثبات أصل الوحى وشرعيته من غير خوض فى تفاصيل كيفيته ، والاكتفاء فيها بما جاء فى القرآن والسنة ، وما ألجأهم إلى هذا التوغل إلا الرغبة فى التوفيق بين طرفين لا يقبلان التوفيق ، وهما الدين وفلسفة أرسطو ، فاضطروا لهذه التأويلات التى أضرت بقضية الدفاع عن العقيدة ؛ " فإن التأويل العقلى المفرط قد يغير كثيراً من معالم الدين إلا أنه وسيلة لازمة لمن يحاولون التوفيق بين العقل والنقل ...والموفق مضطر دائماً لأن يستخلص من الرأيين المتقابلين مذهباً جديداً يمت إلى كل واحد منهما." [2]

---

(1) راجع : الإنسان فى الفلسفة الإسلامية د/ إبراهيم عاتى ص ١٩٣

(2) فى الفلسفة الإسلامية ١/ ١٠٣

٢ـ هذه النظرية محاولة للتوفيق بين الدين وفلسفة أرسطو:

من أبرز النواحى فى نظرية الوحى عند الفلاسفة ذلك المنزع التوفيقى ، فالفارابى وابن سينا فيلسوفان مسلمان جمعا بين الإيمان بالدين والإخلاص للفلسفة ، وبهاتين الميزتين حاولا التوفيق بين لغتين : لغة العقل ولغة القلب ، وهما لغتان مفهومتان ضروريتان للإنسانية الساعية نحو الكمال ، وكأنهما جاءا لتأدية رسالة جليلة خلاصتها : أن الدين والفلسفة هما المعين الصافى للحياة الروحية التى يكون بها المجتمع فاضلاً ، وبدونها يكون ضالاً. [1]

أقول : لقد حاول الفلاسفة عبثًا أن يقيموا صرحًا عقليًا متكاملاً من المبادئ والأفكار، يؤلفون من خلاله بين الدين الإسلامى وفلسفة أرسطو ، وهذا لا يصح ؛ لأن التوفيق بينهما يعنى وضعهما على قدم المساواة ، وشتان ما بينهما ، والموفق لابد له فى النهاية أن يميل إلى أحد الطرفين ، ومن ثم فقد مال الفلاسفة كل الميل إلى مبادئ أرسطو ، واعتنقوها تمامًا ، وبدت المؤثرات الأرسطية واضحة فى أغلب النظرية ، حتى ادعى بعض المستشرقين أن هذه النظرية صيغة توفيقية بين الدين الإسلامى وهيولى أرسطو التى تقضى

(١) راجع : فى سبيل موسوعة فلسفية (الفارابى) د/ مصطفى غالب ص ٣٢ ، ط دار الهلال ، بيروت ، ١٩٩٨

بأن الكون كله مادة واحدة والصور تأتيه من خارج .[1]

ولكي تسلم لهم محاولتهم التوفيقية أخضعوا النصوص الدينية للتأويلات البعيدة ، فصار صنيعهم هذا خروجاً عن النص وتعقيداً للواضحات ، وبهذا يصح أن نحكم على هذه المحاولة بأنها محاولة جانبها التوفيق ولم يحالفها الصواب.[2]

٣ـ يلزم عن هذه النظرية القول بوجوب وحتمية الرسالات :

يترتب على نظريتهم في الوحي ، وعلى تفسيرهم للخلق بالفيض والصدور القول بلزوم النبوة وحتميتها ، فإذا كان العالم بكل ما فيه صادراً عن الله صدوراً آليـًا، فالنبوة كذلك ؛ لأنها سبب للخير العام اللازم لصلاح العالم ، المستحيل تركه في الحكمة الإلهية ، كما أن مخيلة النبي مستعدة للتلقي بالطبع ، وعقول الأفلاك لا بخل فيها ولا احتجاب ، وبهذا تصبح النبوة لازمة ، وهذا يتنافى مع كون الرسالة منحة من الله ـ تبارك وتعالى ـ لمن يشاء بمحض إرادته ولسابق علمه ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، كما يتنافى مع كمال الألوهية ؛

---

(١) راجع : فلسفة أرسطو ص ٦٠ ، تأليف : إدوارد تايلور ، ترجمة : عزت قرني ، ط أولى ، دار الطليعة بيروت ١٩٩٢ .

(٢) راجع : الفارابي الموفق والشارح د/ محمد البهي ص٢٧ ، في سبيل موسوعة فلسفية د/ مصطفى غالب ، ص ٦٣ ، دار الهلال ، بيروت .

فإن الله تعالىٰ لا يجب عليه شئ ، ولا يفعل شيئًا إلا بقدرته واختياره ، لا إيجابًا بالذات. [1]

٤ـ نظريتهم توهم مزاحمة الفيلسوف للنبىٰ فىٰ مكانته :

قد يفهم من كلام الفلاسفة أن الفيلسوف أعلىٰ رتبة من النبىٰ ، أو علىٰ الأقل يساويه فىٰ رتبته ، باعتبار أن مصدرهما المعرفىٰ واحد ، وهو العقل الفعال.[2]

ومنشأ هذا الفهم : أنهم يتحدثون دائمًا عن رفعة النبىٰ لقوة مخيلته، وعلومه طريقها المخيلة القوية التىٰ بها يتلقىٰ عن العقل الفعال ، أما الفيلسوف فطريقه هو التأمل العقلىٰ ، ولا شك أن التأمل أرقىٰ من التخيل.

والإنصاف يقتضىٰ أن نقول : إن هذا الكلام ليس علىٰ ظاهره ، بل فىٰ كلام الفلاسفة ما يؤكد أن النبىٰ أرقىٰ البشر ، ومن ذلك :

أ ـ قولهم برجوع خصوصية النبىٰ إلىٰ مزاج وطبع ، وخصوصية من سواه إلىٰ تحصيل وكسب ، وما كان بالطبع أرقىٰ وأعلىٰ مما كان بتحصيل وكسب.

---

(١) راجع : شرح المقاصد ٣/ ٢٦٩

(٢) راجع : تاريخ الفلسفة الإسلامية ١٥٣ ، ١٥٤ تأليف دىٰ بور ، ترجمة د/ محمد عبد الهادىٰ أبو ريدة ط الهيئة العامة للكتاب .

[1]

ب ـ القول بأن النبئ مزود بقوة عقلية قدسية يمكن أن يتلقئ بها الأوامر الإلهية ، فطريقه ليس قاصراً علئ المخيلة فحسب ، يقول الفارابئ مؤكداً هذا المعنئ : " النبوة مختصة فئ روحها بقوة قدسية تذعن لها غريزة عالم الخلق الأكبر ، كما تذعن لروحك غريزة عالم الخلق الأصغر ...ولا تصدأ مرآتها ولا يمنعها شئ عن انتقاش ما فئ اللوح المحفوظ. " [2]

فإمداد الله للأنبياء دائم لاينقطع ماداموا أحياء ، كما أن وسائلهم متنوعة ، فكما يمكنه الاتصال بالعقل الفعال عن طريق المخيلة ، يمكنه بعقله القدسئ أن يعرج إلئ الكائنات العلوية لما له من قوة تمكنه من الصعود إلئ عالم النور. [3]

ج ـ اعتبر الفارابئ النبئ هو أكمل مراتب الإنسانية ، ومعارفه تعلو عن معرفة الفيلسوف بخصوصيات تعود إلئ مزاجه وذاته ، وهو فئ أعلئ درجات

---

(1) راجع : الإشارات ٤/ ١٥٥

(2) فصوص الحكم ٢٠٩

(3) فئ الفلسفة الإسلامية ٢/ ١٠١

السعادة.[1]

د ـ وبالإضافة إلىٰ ما سبق : فإن مصدر معارف النبىٰ والفيلسوف العقل الفعال سواء كان طريقها المخيلة أو التأمل العقلىٰ ، فقيمة الحقيقة لا ترتبط بالطريقة التىٰ وصلت إلينا منه بل بالأصل التىٰ أخذت عنه .[2]

ومن هذه الزاوية يقف (هنرىٰ كوربان) مدافعاً عن فلاسفة الإشراق ، فيقرر أن القول بوحدة مصدر معارف النبىٰ والفيلسوف أو توحيد ملاك المعرفة والوحىٰ فىٰ كائن واحد ـ علىٰ حد تعبيره ـ من مقتضيات كل فلسفة فىٰ النبوة ، ومذهب فلاسفة الإشراق ـ وبخاصة الفارابىٰ ـ متجه كله فىٰ هذا الاتجاه ؛ ولذا لا يكفىٰ أن نقول إنه أعطىٰ أساساً فلسفياً للوحىٰ ، كما أنه من الخطأ أن نقول إنه وضع الفلسفة فوق النبوة ، فهذا فهم خاطئ لجوهر فلسفة النبوة عندهم.[3]

والحق أن وضع المعرفة الوحيية ومنزلتها من العلوم العقلية ، أومنزلة

---

(1) آراء أهل المدينة الفاضلة ١٢٥ ، ومع هذه الأوصاف الكمالية التىٰ تميز النبىٰ عن غيره ، والتىٰ ذكرها الفارابىٰ ، إلا أنها لا ترفع عن نظريته الضعف والقصور ، ولا تعفيه هو ومن قال مقالته من الاتهام باكتساب النبوة .

(2) فىٰ الفلسفة الإسلامية ١/ ١٠٠

(3) راجع تاريخ الفلسفة الإسلامية ، هنرىٰ كوربان ٢٥١

النبىٰ والفيلسوف كانت محل بحث وخلاف بين المختصين بالبحث فى تراث الفلاسفة :

ـ فمنهم من يلتمس لهم العذر ، ويحمل الكلام علىٰ حسن الظن ، ويقدم نصوصاً تدفع عنهم الاتهام بإعلاء الفيلسوف علىٰ النبىٰ ، كما سبق نماذج منها قبل قليل.

ـ ومنهم من يأخذ مذهبهم علىٰ ظاهره ، فيرىٰ أنه يقتضىٰ رفع الفيلسوف علىٰ النبىٰ باعتبار أن هذا هو النتيجة المنطقية التىٰ تلزم عن فلسفته النظرية ، فمعارف الأنبياء ووحيهم تعود إلىٰ المخيلة ، والمخيلة فىٰ الدرجة الوسطىٰ بين الحس والعقل ، والفيلسوف تعود معرفته إلىٰ الدرجة الأعلىٰ وهىٰ العقل ، فاللازم من مذهبهم تفضيل معرفة الفيلسوف علىٰ النبىٰ من وجهين :

الأول : وسيلة الاتصال ، وهىٰ العقل عند الفيلسوف ، والخيال عند النبىٰ .

الثانىٰ : نوع المعرفة ، فإن معارف الفيلسوف عقلية خالصة ، أما معرفة النبىٰ فهىٰ من المخيلة .

والنتيجة اللازمة لذلك : أن تكون المعرفة العقلية أرقىٰ من المعرفة الوحيية ، وأن يكون الفيلسوف أرقىٰ من النبىٰ.[1]

(1) راجع : نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ص ٧٦٤

٥- ينتج عن نظريتهم في الوحي القول بكسب النبوة :

والنقد الأبرز الذي يتوجه لنظرية الوحي عند الفلاسفة أنها تقتضي أن النبوة مكتسبة تنال بالاجتهاد والترقي في المقامات ، فهي خاضعة للتدرج في سلم المجاهدات ، وبهذا تصبح النبوة ضرباً من المعرفة الممكنة لكل الناس ، فأي شخص يمكن أن يتصل بالعقل الفعال إذا جاهد نفسه وقوى مخيلته ، وبتفاوت الاستعدادات تختلف الدرجات ، فإذا ما عظم إشراقه على أحد يسمو إلى درجة النبوة والإلهام ، ويترتب على هذا مصادمة عقيدة ختم النبوة والرسالات برسالة نبينا صلى الله عليه وسلم. (١)

وهذا مخالف للتصور الإسلامي السني للنبوة ، فالنبوة منحة من الله ، وليست مكتسبة ، يقول الشهرستاني " أجمع أهل الحق على أن النبوة ليست صفة راجعة إلى نفس النبي ، ولا هي درجة يبلغ إليها أحد بعلمه وكسبه ولا لاستعداد نفسه يستحق به اتصالاً بالروحانيات ، بل هي رحمة من الله تعالى ونعمة يمن بها على من يشاء من عباده " (٢)

ويقف الدكتور / إبراهيم مدكور - كعادته - مدافعاً عن الفلاسفة في هذه الجزئية من خلال قولهم بأن النبوة ليست كسبية ، بل هي فطرية تعود إلى مزاج

---

(١) راجع : في الفلسفة الإسلامية ١/ ١٠٢

(٢) نهاية الإقدام ٤٦١،٤٦٢ طبعة لندن ، تحقيق : الفرد جيوم

النبئ وخصوصيته ، وقد صرح بذلك ابن سينا فى الإشارات ، فقال " هذه القوة ـ يعنئ : النبوة ـ ربما كانت للنفس بحسب المزاج الأصلئ الذئ لما يفيده من هيئة نفسانية يصير للنفس الشخصية تشخصها " ، وقال " فالذئ يقع له هذا فى جبلة النفس ثم يكون خيراً رشيداً مزكياً لنفسه فهو ذو معجزة من الأنبياء " [1]

ويدعم هذا بما قرره المتكلمون من أن النبوة مع كونها منحة من الله ، فإن الأنبياء ـ لكونهم صفوة الله من خلقه ـ يصطفيهم الله فعلاً بكمال الفطرة ، ونقاء الجوهر ، وصفاء العنصر ، وطيب الاخلاق ، وكرم الأعراق. [2]

ومع هذا الدفاع إلا أن الاتهام لايزال يلاحق الفلاسفة ، وما يزال مذهبهم مقتضياً للقول بكسب النبوة ، هذا فضلاً عما يلزمهم من القول بكونها من لوازم الإبداع والصنع وليست باختيار البارئ ـ جل وعلا ـ والقول بعودتها إلئ استحقاق النبئ لخصوصية ذاته ، وهذا ينافى كونها منحة من الله لمن يشاء من عباده. [3]

---

(1) الإشارات ٤/ ١٥٦،١٥٥

(2) راجع : نهاية الإقدام ٤٦٣

(3) راجع : نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ٧٦٢

خاتمة البحث

وختامًا لهذه الدراسة الموجزة أقول :

ـ إن نظرية الفلاسفة فى الوحى والنبوة لا تخدم قضية الدفاع عن العقيدة فى شىء ، والحق أن القرآن والسنة قد فسرا الوحى تفسيراً يكفل له الدفاع الملزم للعقل السليم ، فقد ركزا على إثبات أصله وبيان صوره مع الإمساك عن كيفيته.

ـ إن التحكم فى تبرير نظرية الوحى تبريراً عقليًا مع قصور العقل عن بلوغ ما يشفى الغليل فى هذا المقام يخرج الإنسان عن جادة الصواب ؛ إذ إنها تضطره إلى اختراع مبررات عقلية لا لزوم لها بما يزيد المسألة تعقيداً .

ـ إن تفسير الفلاسفة للوحى والنبوة قلب للحقائق، وتحريف للكلم عن مواضعه ، فيحول النبى من إنسان مصطفى ممنوح من الله ، مميز عن بقية البشر بوحى الله إليه إلى إنسان راض نفسه وجاهدها وترقى فى المقامات .

ـ كذلك : تتحول الملائكة من مخلوقات خلقها الله من نور ، وميزها الله بميزات خاصة إلى عقول أفلاك تتلقى العلم من اللوح المحفوظ وتتصل باطنيًا بالمتلقى من نبى أو غيره فتنتقش نفسه بما فى عقول الملائكة .

ـ إن تفسير الوحىٰ بهذه الصورة كذلك يفتح الباب علىٰ مصراعيه أمام الدجالين والمشعوذين لادعاء الاتصال بالملأ الأعلىٰ علىٰ أىٰ وصف سواء كانوا أنبياء أم أولياء أم فلاسفة ، الكل متصل ولا ضوابط قاطعة للتفريق .

ـ كذلك : النظرية هذه تخدم فكرة الشيعة فىٰ الإمام المعصوم المشارك للنبىٰ فىٰ العصمة ، وبهذا تكون الإمامة امتداداً للنبوة ؛ وذلك لأن الفلاسفة يقولون بوجوب وجود النبىٰ ، والنبىٰ هو المشرع مادام حيـًا ؛ وهو المتصل بالعقل الفعال ، وبوجوده تحصل السعادة القصوىٰ للمجتمع ، ويسود الأمن والرخاء ، وهذه الحالة تشبه الحالة التىٰ رسمها الشيعة للعالم عند رجعة الإمام الغائب.[1]

ـ ومع هذه المثالب تبقىٰ النظرية دالة بقوة علىٰ عمق الفكر الفلسفىٰ الإسلامىٰ ، وطريقة من طرق التأسيس العقلىٰ الفلسفىٰ لقضايا الدين رداً علىٰ كل من ينكر عقلانية الإسلام ، ويدعىٰ فيه الجمود والتزمت .

ـ وأيضـًا : فإن الفلاسفة مع تسليمهم بالوحىٰ كطريق للمعرفة ، إلا أن النظرية تبدو متأثرة إلىٰ أبعد الحدود بعلم النفس الأرسطىٰ ، وبالنزعة المثالية

---

(1) راجع : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٤٩ ، هنرىٰ كوربان ، ترجمة : نصير مروة وحسن قبيسىٰ ، مراجعة : موسىٰ الصدر ، طبعة ثانية ١٩٩٨ ، عويدات ـ بيروت ، ونظرية المعرفة بين الفلسفة والقرآن ص ٧٧٠

الأفلاطونية والاتجاه الصوفى الأقلوطينى ، كل هذه العناصر والمؤثرات حاول الفلاسفة نظمها فى قالب واحد مع رغبتهم فى التوفيق بين كل هذه العناصر والدين الإسلامى .

ـ وبجانب هذا المنزع التوفيقى فى نظريتهم للوحى نجد فيها محاولة لتأسيس فكرة الوحى والإلهام فى الإسلام على أسس عقلية فلسفية نفسية ، وكأن الفلاسفة بذلك يردون على كل من أنكر الوحى ببيان أنه لا يتفق مع مبادئ العقل.(١)

ـ وقد لاقى مذهبهم هذا القبول على نطاق ضيق جداً لاسيما عند ابن رشد الحفيد ، وعلى الجانب المقابل قوبل مذهبهم بالرفض والإنكار على نطاق أوسع وخاصة عند المتكلمين الذين اعتبروا نظرية الفلاسفة فى الوحى اعتداءً على عقيدة ختم النبوة وخروجاً عما أقره الكتاب والسنة. (٢)

ـ وأيضا فقد كانت هذه النظرية برهنة على أصالة وعمق الفلسفة الإسلامية وبراعة أساطينها فى التحليل والعرض والابتكار، وقد ظهر أثرهم

---

(١) راجع : فى الفلسفة الإسلامية د/ مدكور ٢/ ١٠٠

(٢) راجع : شرح المواقف ٨/ ٢٥٤ وما بعدها ، وشرح المقاصد ٣/ ٢٨١ وما بعدها ، وقارن : تهافت التهافت ص ٧٤٥ وما بعدها ، ت: د/ سليمان دنيا ، ط ١ ، دار المعارف ١٩٦٤

واضحًا على فلاسفة أوربا في العصرين الوسيط والحديث ، فقد ترجمت كثير من مصنفات فلاسفتنا إلى اللاتينية في العصر الوسيط ، ومن أول الأعمال التي ترجمت : الوريقات الأولى من منطق الشفاء لابن سينا ، وبالرغم من قلة الأوراق المترجمة إلا أنها كانت كافية ـ في هذا الوقت ـ لإقناع مفكري أوربا بقيمة ابن سينا ، وأنه هو ورفاقه هم القادرون على إمدادهم بالعون في بداية نهضتهم الفكرية ، واعتبروا كتب فلاسفة المسلمين كنزاً هائلاً يكفي لحل الكثير من مشاكلهم اللاهوتية ؛ إذ أنها تضم بين جنباتها خلاصة نتاج العقليين اليوناني القديم والعربي الإسلامي .[1]

والنماذج التطبيقية لهذا التأثر أكثر من أن تحصى ، فقد تأثر توماس الإكويني بابن سينا في النفس وعلاقتها بالبدن ، وتابع ابن سينا في قوله بأن البدن هو أداة النفس في المعرفة الحسية ، والمعرفة الحسية هي أساس المعارف العقلية الأسمى ، وتأثر به روجر بيكون في مسائل المنطق برغم حملته الشديدة على أرسطو وكل محبيه ، وجاء الفيلسوف الفرنسي (جيوم دوفرني) المتوفى عام ١٢٤٩ ، فكان له اهتمام بالغ بالتراث الإسلامي ، وكان يعي الفلسفة الإسلامية بشكل مثير للدهشة ، بل وأشار في كتبه للعديد من

(١) راجع : ابن سينا وتلاميذه اللاتين د/ زينب الخضيري ص ١٩ ، ط أولى ١٩٨٦ ، مكتبة الخانجي بالقاهرة .

فلاسفة الإسلام ، وذكر اسم ابن سينا وحده أكثر من أربعين مرة ، واقتبس منه كثيراً من التعريفات .[1]

وبعد : فهذا هو جهد المقل أضعه بين أيدى القراء الكرام ، وقد حاولت قدر جهدى أن أتفهم هذه القضية ، وأن أسهم - ولو بقدر ضئيل - فى طرحها وتوضيحها ، فإن كان من توفيق فمن الله وحده ، فمنه المنة وإليه المآب، وإن كانت الأخرى فمنى ومن الشيطان ، وحسبى أنى بشر أخطئ وأصيب ، فالله أسأل وبنبيه أتوسل أن يتقبل عملى هذا بقبول حسن ، وأن يجعله لى فى ميزان حسناتى يوم ألقاه ، أنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى اللهم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

(١) راجع : ابن سينا وتلاميذه اللاتين ص ٨٣ ، ٩٦ ، ١٣٢ .

أهم المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم

ثانيًا : الكتب العلمية

١ـآراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى ط سابعة ، دار المشرق بيروت .

٢ ـ أرسطو عند العرب د/ عبد الرحمن بدوى ـ ط ٢ الكويت ١٩٧٨

٣ـ الإشارات والتنبيهات لابن سينا ط ٣ دار المعارف ت / د . سليمان دنيا

٤ ـ أفلاطون (فالترز) ترجمة إبراهيم خورشيد ، ط / دار الكتاب اللبنانى

٥ـ أفلوطين د/ مصطفى غالب ، ط / دار الهلال ١٩٨٧

٦ ـ الإنسان فى الفلسفة الإسلامية د / إبراهيم عاتى ، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣

٧ـ تاريخ الفكر الفلسفى د/ محمد على أبو ريان ط دار المعرفة الجامعية ١٩٩٦

٨ـ تاريخ الفلسفة الإسلامية هنرى كوربان ، ط عويدات للنشر والطباعة ١٩٩٨

٩ـ تاريخ الفلسفة الغربية ، برتراند رسل ، ت محمد الشنيطى ط الهيئة العامة للكتاب ١٠ ـ تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ديبور ، ت: محمد أبو ريدة ط الهيئة العامة للكتاب

١١- الاتجاه الإشراقي في فلسفة ابن سينا د / ميرفت بالي ط١/ دار الجيل ١٩٩٤

١٢- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ط / مكتبة مصر بالفجالة

١٣- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ط الهيئة المصرية للكتاب

١٤- الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي د/ محمد البهي ط٢ عيسى الحلبي ١٩٥١

١٥- حكمة الغرب ، برتراند راسل ، ترجمة : فؤاد زكريا ط عالم المعرفة ، الكويت

١٦- دراسات في علم الكلام والفلسفة د / يحيى هويدي ط / دار الثقافة ١٩٧٩

١٧- الدين والوحي والإسلام للإمام مصطفى عبد الرازق ط دار الكتب المصرية .

١٨- روح المعاني للآلوسي ط / دار الحديث

١٩- روح الفلسفة المسيحية في العصرالوسيط ، إتين جلسون ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، ط ٣ ، ١٩٩٦ ، مكتبة مدبولي بالقاهرة .

٢٠- ابن سينا وتلاميذه اللاتين د/ زينب الخضيري ط ١ مكتبة ط١ الخانجي

٢١- ابن سينا ومذهبه في النفس د / فتح الله خليف ط جامعة بيروت ١٩٧٤

٢٢ـ السيرة النبوية لابن هشام ط دار الفكر بيروت .
٢٣ ـ شرح المعالم لابن التلمسانى ت / عواد محمود ، ط الأزهرية للتراث ٢٠١١
٢٤ ـ شرح المقاصد للتفتازانى ط دار الكتب العلمية ٢٠٠١
٢٥ ـ شرح المواقف للسيد الشريف ط دار الكتب العلمية ١٩٩٨
٢٦ـ الصحاح فى اللغة والعلوم للجوهرى ط دار الحضارة العربية بيروت
٢٧ـ صحيح البخارى ط / أولى دار ابن حزم ، ترتيب محمد فؤاد عبد الباقى
٢٨ـ عقيدتنا د/ محمد ربيع جوهرى ط / مكتبة الإيمان .
٢٩ـ العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة ، إميل بوترو ، ترجمة د/ أحمد فؤاد الأهوانى ، ط الهيئة العامة للكتاب .
٣٠ـ الفارابى الموفق والشارح د / محمد البهى ط أولى ، مكتبة وهبة ، ١٩٨١
٣١ـ فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط د/ أحمد الأهوانى ط / الهيئة العامة للكتاب
٣٢ـ فلسفة العصور الوسطى د/ عبد الرحمن بدوى ، ط ٣ / دار القلم بيروت ١٩٧٩
٣٣ـ الفلسفة الإسلامية للأستاذ العقاد ط١/ دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٨

٣٤ـ الفلسفة الإسلامية وأعلامها د / يوسف فرحات ط١ / ترادكسيم سويسرا ١٩٨٦

٣٥ـ الفلسفة الطبيعية والإلهية عند الفارابئ د/ زينب عفيفئ ط / دار الوفاء .

٣٦ـ فئ سبيل موسوعة فلسفية د / مصطفئ غالب ط دار الهلال بيروت ١٩٩٨

٣٧ـ فئ الفلسفة الإسلامية د / إبراهيم مدكور ط / دار المعارف

٣٨ـ قصة الفلسفة الغربية د / يحيئ هويدئ ط / دار الثقافة ١٩٩٣

٣٩ـ قصة الفلسفة اليونانية ، أحمد أمين ، زكئ نجيب محمود ط ٢ / دار الكتب المصرية ١٩٣٥

٤٠ـ قصة النزاع بين الدين والفلسفة د / توفيق الطويل ط / مكتبة الآداب

٤١ـ الكشاف للزمخشرئ ط / مكتبة مصر بالفجالة

٤٢ـ لسان العرب لابن منظور ط / دارلسان العرب بيروت

٤٣ـ مجموع رسائل الفارابئ ، ط الهيئة العامة للكتاب

٤٤ـ محاضرات فئ النصرانية للإمام محمد أبو زهرة ط دار الفكر العربئ

٤٥ـ مدخل جديد إلئ الفلسفة د/ عبد الرحمن بدوئ ط١ الكويت ١٩٧٥

٤٦ـ مصادر المعرفة فئ الفكر الدينئ والفلسفئ د/عبد الرحمن بن زيد الزنيدئ ط١ مكتبة المؤيد ، المملكة العربية السعودية ١٩٩٢

٤٧ـ المصباح المنير للفيومى ط ٣ المطابع الأميرية ١٩١٢

٤٨ـ مع الفلسفة اليونانية د / محمد عبد الرحمن مرحبا ط ٣ عويدات بيروت

٤٩ـ مفاتيح الغيب للرازى ط / المكتبة التوفيقية

٥٠ـ ملامح الفكر الفلسفى عند اليونان د/ حربى عطيتو ط / دار المعرفة الجامعية

٥١ـ المنقذ من الضلال ت: د/ عبد الحليم محمود ، ط ٨/ دار الكتب الحديثة ١٩٧٤

٥٢ـ النجاة لابن سينا ط دار الجيل بيروت ، ١٩٩٢ ، ت/ عبد الرحمن عميرة

٥٣ـ نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام د/ على سامى النشار ط دار المعارف ١٩٧٧

٥٤ـ نظرية المعرفة عند أرسطو د / مصطفى النشار ط٣ / دار المعارف ١٩٩٥

٥٥ـ نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة د / راجح الكردى ط ١ مكتبة المؤيد ١٩٩٢

٥٦ـ نهاية الإقدام فى علم الكلام للشهرستانى ط / لندن

٥٧ـ الوحى المحمدى ، محمد رشيد رضا ط ٦ / القاهرة ١٩٦٠

فهرس البحث